غَيـَــابَتُ الجُــــبّ

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة
أسامة إبراهيم

المدير التنفيذى
سماح الجمال

المدير الفني
أحمد جابر

تصميم الغلاف
أحمد صادق

التصميم الداخلى
حسين الحماقى

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع
٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحى الأول - مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: 00202 - 38511969
001 - 0128868875
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الثانية
1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
2017 / 11232

الترقيم الدولى:
ISBN : 978 - 977 - 6580 - 80 - 0

غَيَابَتُ الجُبّ

أسامة هشام

من شابه أباه..ظلم..
معجزة حماه
معجزة ادلب
معجزة حمص
معجزة حلب
داريا
حماه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد..

كلُّ الذي يحدث في هذه الثورة السورية، لا أجد فيه غريبًا ولا جديدًا.. الحقد النصيري، والتعذيب الوحشي، والاستهانة بالمقدّسات الإسلامية، والاعتقالات، واحتباس الناس كرهائن، والاستهتار بالمواطن، والكذب الإعلامي الوقح الوضيع، وإفساد القيم والمثل الأخلاقية في صفوف الشعب... عايشناه وشاهدناه منذ أكثر من أربعين سنة.

هي حرب ضد السوريين عامة والمسلمين خاصة بدأها حزب البعث منذ السستينيات في القرن الماضي واستأنفها المجرم المقبور حافظ الأسد، وتحولت من حكم الحزب إلى حكم العائلة، الغاية منها نهب خيرات البلاد إلى فئة صغيرة مستفيدة، وتدمير سوريا عسكريًا واقتصاديًا وأخلاقيًا، وتنفيذ ما عجزت إسرائيل عن تحقيقه على مدى سبعين عاما، ويكملها الآن وريثه وتلميذه الذي فاق أستاذه في الإجرام، لعنة الله عليه وعلى أبيه في الدنيا والآخرة.

كنت أعتقد أن تجربتي مرّت وانقضت وأصبحت في ذمّة التاريخ، وكنتُ أحجِمُ عن الحديث عنها بسبب استمرار النظام البوليسي القمعي الإرهابي في سوريا، وما كنت أحب نقل معاناتي إلى الناس تجنبا لإزعاجهم بالقَصص الكئيبة على القلوب والتي تكدر المزاج، وكذلك فإن هذا الحديث يثير في نفسي شعورا مريرا بجرح قديم لا أحب أن أنكأه، حتى أن أولادي لا يعلمون الكثير عن تفاصيل تلك المحنة لأني لم أكن أتحدث عنها، ورأيتُ أن

غيري كتب في هذا الوضوع وكفَّى ووفَّى، فقد انقضت المحنة وحصل الذي حصل، ولا رجوع في التاريخ، واحتسبتُ أجري عند الله.

أمّا وقد أصبح الجهاد على أسنَّة الرماح، واتّسعت رقعة الحرب على الإسلام، واكتشفتُ أن كثيرا من الناس يجهلون تماما ما كان يحدث في غياهب سجون الظالمين، بل ويترحَّمون على المقبور حافظ، وكثيرا ما رأيتُ ملامح الدهشة والعجب في وجوه من رويتُ لهم بعضَ الفصول من روايتي الرهيبة، لذلك رأيت أنه من واجبي أن أنشر تجربتي للناس، لعلّه يكون فيها شيءٌ من الدرس والموعظة، وكشفٌ لخبايا هذا النظام المجرم، وجهادٌ بالكلمة.

أسـرُدُ في هذه الرواية الحقيقية بعضَ القَصص التي عشتها بنفسي خلال خمسة عشر عاما في تدمر، وسأنقلها بأمانة، ولكني سأرسمُها بشكل لوحات متفرقة حسب الخواطر التي تردني، ولا يشترط فيها التسلسل الزمني الدقيق لأن القصص كثيرة ولم أعد أذكر أيها قبل وأيها بعد.

وسأشرح المصطلحات التي كنا نستعملها ونتداولها في السجن مثل: السخرة، الدوسير، المُعَلَّم، البلدية، المسؤول الصحي، الحارس الليلي، رئيس المهجع.. وسأعلق على كل واحدة في حينها.

يوم الاعتقال

كنت مع زملائي في جولتنا الصباحيّة الطبية اليومية في المستشفى حين خرجنا من إحدى غرف المرضى لنتابع من في الغرفة التي بعدها، فاستوقفني رجل مُريب وقال: أريد أن أتكلم معك.

ظننته أحد أقرباء المرضى ويريد أن يسألني عن حال مريضِه، فأجبته: «نعم، ولكن بعد أن أنهي جولتي على المرضى».

فأمسكني من يدي بغلظة- ولمحتُ مسدّسا على خاصرته- وقال: «بل الآن».

عرفتُ بأن في الأمر مشكلة، وأن الرجل من مخابرات الأسد وقد وقع المكروه.

في الحقيقة كنت أسمع في تلك الفترة عن المداهمات والملاحقات المجنونة للشباب الإسلاميين، والحملة الشرسة للاعتقالات، ولكني لم أكن خائفا، ولم أحاول الخروج من البلاد مع أنه كان بوسعي ذلك، صحيح أني كنتُ أصلِّي، وكنت معاديا لسياسة الدولة العامة التي طغى عليها صفة العنصرية النصيرية، وذلك كان شعور معظم الناس، ولكن لم يكن لي نشاطات أو معرفة بحزب الإخوان المسلمين، ولم أكن أعلم أن الحرب ضد الإخوان كانت الشمَّاعة التي علَّقَ عليها حكم البعث كلَّ جرائمهِ، وأنها كانت حربا ضد الإسلام تحت شعار محاربة الإخوان (كما هو الحال تماما في عهد الرئيس الابن: حرب على الإسلام تحت شعار محاربة الإرهابيين

والعصابات المسلحة، وإن التاريخ يعيد نفسه).

فورا سألني الرجل: «أين حسام؟».

كانت مفاجأة ثانية!...إذاً هو يريد حسام!

كان أخي حسام يدرس الطبَّ أيضا، ولأجل الأقدار كان دوامُهُ حسب ما هو مقرر في برنامج الكلية أن يكون في نفس المشفى الذي أعمل به، وجاء هذا الرجل المخابراتي يبحث عنه، وربما قادته الكنية المشتركة إليّ.. فسبحان الله.

المفاجأة أربكتني... فقلت له في سذاجة مكشوفة: لا أعرفه... قال حسنا، امضِ معي.

أراد أن يخرج بي فورا من المستشفى، وأنا في اللباس الطبي الأبيض الرقيق (وكنا في كانون ثاني).. قلت له أغيرُ ثيابي وألبس ثيابي الشتوية، فرفض في البداية وأصرَّ أن أخرج معه في عزِّ الشتاء إلى الشارع بلباس صيفي ونصف كم، وأنا أصررت بالمقابل، فوافق على مضض.

خطر ببالي أن أحاول الهرب، ولكن.. بالتأكيد المشفى مطوَّق وسوف يطلقون الرصاص عليَّ ويقتلونني كما أطلقوه على زميلي «مخلص قنوت» منذ عدة أيام.. مغامرة لا داعي لها!

«مخلص» من مدينة حماة، كان طبيبا من زملائي يختص في قسم الجراحة في مشفى المواساة، داهمته قوات المخابرات في المشفى، فحاول الهرب، فأطلقوا عليه النار وأصيب بعدة طلقات ولكنه لم يقتل، واحتجزوه في سجن المشفى للعلاج.. ثم اقتيد إلى تدمر وفي رجله عَرجٌ بسبب إصابته حيث أعدم– رحمه الله-.

عاود السؤال مرة ثانية بإلحاح، وكأنه متيقنٌ أني كذبتُ عليه «ألا تعرف حسام؟».

فكرتُ في نفسي أنه سوف ينكشف أمري آجلا أم عاجلا وستصبح المشكلة أكبر، قلت له: «نعم إنه أخي».

قال: «إذن لماذا أنكرت؟» قلت له «ارتبكت».. قال «أين هو الآن؟».. «قلت لا أدري».

المهم أني ركبت في سيارة عادية في المقعد الخلفي (بيجو)، ومضوا بي، وبعد أن قطعنا مسافة، استدار نحوي ولف رأسي بعصابة سوداء غطت عيوني فلم أعد أدري أين نسير.

وصلنا.. أنزلني من السيارة، وأمسك بيدي بغلظة، ومشى بي، وأنا مغمض العينين، وصلنا إلى درج.. نزل.. فنزلت معه وأنا أخشى أن أقع، شعرت بأني أعامَل كمجرم منذ اللحظة الأولى.

فتشوني، أخذوا كل شيء. المفاتيح والنقود والساعة. فتحوا بابا حديديا، وقالوا ادخل.

دخلتُ، فوجدت أنها غرفة كبيرة (مهجع)، مكتظّةٌ بالموقوفين، جالسين على الأرض متجاورين مثل أسياخ الكباب، تحتهم بطانيات عسكرية، لحاهم طويلة، وبعضها طويلة جدا جدا!.

جلست قرب الباب.. آخر مكان.

كان جانبي شاب رقيق، حديثُ السن يبدو أنه طالب مدرسة، استأنست به.. فسألتُهُ بصوت خافت:

- أين نحن؟
- أمن الدولة.
- ما اسمك؟
- عبد الرحمن.
- منذ متى أنت هنا؟
- عشرة أيام.

فأحسست بدهشة وصدمة وخوف، وقلت بسذاجة: عشرة أيـااااام وأنت جالس على هذا الحال، يا للهول؟

- نعم، وذلك الرجل مقابلك (وأشار إليه برأسه) منذ ثمانية أشهر.
- نعاااااااااااام!.. وأحسستُ بإحباط شديد.

- بعد قليل حضر سجان ومعه ربطة خبز، فتحها وبدأ يضع أقراص فلافل في كل رغيف ويوزعها على الموقوفين، لم آكلها، وهل هذا وقت الطعام؟ قال لي عبد الرحمن: «خذها واحتفظ بها، سوف تحتاجها»، قلت له «بل خذها أنت إن شئت» فأخذها.

- لم أعد أعرف الوقت.. فُتِح الباب وقالوا أسامة إلى الخارج.

تفاءلت، ربما علموا أنهم أخطؤوا بإحضاري وسوف يطلقون سراحي.

أدخلوني إلى مكتب وأنا مغمض العينين، وقال لي المحقق: "أريدك أن تتصل بأخيك حسام، وتطلب منه الحضور لعندك إلى المستشفى... أنت تعرف أن الواجب الوطني أهم من القرابات، ومصلحة الوطن فوق كل

شيء.. نحن لا نريدك أنت، بل هو، وأنت ستعود فورا إلى مشفاك".

لم أكن بالطبع أجرؤ على الرفض والتمرد في موقف لاأحسد عليه، فحاولت التهرب وقلت له "لن أجده في مثل هذا الوقت، فهو حتما لايزال في الكلية". فسكت، واستدعى السجّان وقال "أعده إلى مكانه" فحمدتُ الله أن صرفه عني، وكفاني شر الإيقاع بأخي.

إذا وقع القدر عمي البصر:

بعد ساعات فتحوا الباب ثانية واقتادوني خارج الفرع، وأركبوني سيارة مع عناصر مسلحين.. انطلقنا.. ثم قال قائد الدورية: "دلَّنا على بيتكم!".

بدأت تدور الأفكار برأسي بسرعة، وكان عليّ أن أتخذ قرارا سريعا، ماذا أفعل؟ يريدونني أن أقودَهم بنفسي إلى أخي ليرموا به إلى التهلكة، ما هذا الاختبار يا إلهي؟.

فكرتُ أن الرفضَ في هذا الموقف مستحيل وسيكون بعده ما لايحمد عقباه، فرأيت ان الحيلة أنسب الحلول.

قررتُ أن أرشدهم إلى بيت جدتي بدل بيتنا، وسأدّعي أنه مقيم عند جدته، وبالطبع لن يجدوه هناك، وعسى جدتي أن تفهم اللعبة ولا تخبرهم بأنه ليس مقيما عندها لأنها ستكون حينها ورطة كبيرة لي، نعم سوف يكتشفون كذبتي، ولكن المهم أن لايقبضوا على حسام ثم ليكن بعدها ما يكون وسلمت أمري إلى الله!

أرشدتُهم إلى بيت الجدة، كانت سيارة أبي - والتي هي بحوزة حسام وقتها- مركونةً عند مدخل البناء.

لم أشاهد السيارة بتاتا، ولو شاهدتُها لربما كان أمرٌ آخر، ولكن إذا وقع القدر عَمِيَ البصر.. وليقضيَ الله أمرا كان مفعولا.

اكتشفتُ أنه كان معنا سيارات أخرى من المخابرات ممتلئة بالعناصر المدججين بالسلاح، وكأنهم ذاهبون إلى اقتحام قلعة، وكانوا يتكلمون مع بعضهم باللاسلكي، ثم قال أحدهم متحدثا باللاسلكي مبشرا رئيسه: "لقد قبضنا على الهدف سيدي"!.

نعم قبضوا عليه.. لأجل القدر العجيب كان حسام عند جدته، كان هذا أسوأ يوم في حياتي.. ولا أزال إلى يومي هذا ألومُ نفسي.

وقبل المضي في قصتي هذه لابد من إلقاء الضوء وبشكل مختصر على أهم الأحداث التي حصلت في سوريا، والتداعيات التي فجَّرت الوضع، وأوصلتنا إلى ما وصلنا إليه.

بداية الشرر

حوادث سوريا الدامية بدأت منذ ثورة ٨ أقذار ١٩٦٣ وتولي البعثيين السلطة في سوريا، ثم تتابع الانقلابات فيما بينهم، تخللها صعود حافظ الوحش في السلم السياسي (هذا اسمه الحقيقي وليس تهكما.. إذ تذكر المراجع التارخية أن أباه سليمان كان شرس الطباع فأُطلق عليه اسم سليمان الوحش، فعُرِفتّ عائلته ببيت الوحش، وقد أثبت التاريخ أنه اسم على مسمى) وصولا إلى مركز وزير دفاع ثم استيلائه على رئاسة الجمهورية عام ١٩٧٠.

وأنقل عن الويكيبيديا، الموسوعة الحرة هذا النص.

«بعد أن استولى حزب البعث على السلطة في انقلاب ثورة الثامن من آذار، أعيد حافظ إلى الخدمة من قبل صديقه ورفيقه في اللجنة العسكرية مدير إدارة شؤون الضباط آنذاك المقدم صلاح جديد، ورقي بعدها عام ١٩٦٤ من رتبه رائد إلى رتبة لواء دفعة واحدة، وعين قائدًا للقوى الجوية والدفاع الجوي.

وتمكن في ١٦ نوفمبر ١٩٧٠ من الانقلاب على صلاح جديد ورئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي وسَجَنَهما مع العديد من رفاقهم وذلك فيما يعرف ب « الحركة التصحيحية»، لِيُثَبَّتَ في ١٢ آذار / مارس١٩٧١ رئيسًا للجمهورية العربية السورية لمدة سبع سنوات بعد إجراء استفتاء شعبي وليكون بذلك أول رئيس علوي في التاريخ السوري.“

حوادث الدستور:

عام ١٩٧١، تم تعديل الدستور في دقائق - كما حدث مع ابنه بشار- حتى يناسب مقاسه، فعُدلت فيه مادتان:

- شرط المدة، إذ كانت مدة الرئاسة أربع سنوات فمُددت إلى سبعة.
- شرط الدين، إذ كان حافظ من الطائفة العلوية، وهو خلاف الدستور الذي ينص على وجوب كون الرئيس سنيا.

شاعت الأخبار يومذاك أنَّ حافظا أصبح سنيا، ونطق بالشهادتين، وأدى فريضة الحج، وقام الإعلام السوري (المعروف بكذبه منذ ذلك الحين) بعرض أدائه لمناسك الحج.. وزاد في النغم طنبورا، فئة علماء السلطان الذين كانوا يُشيدون بإيمان المقبور ويشهدون له بالتقوى والصلاح، وتراهم في الأعياد

الإسلامية يتباهون بصحبة ذلك الزنديق، فكان مفتي الجمهورية آنذاك، أحمد كفتارو، يظهر في كل عيد وهو يتأبط ذراع حافظ، ويقول في خُطَبِهِ:

"يقولون عن الرئيس ليس بمؤمن... العما ضربهون ما شافوه عم يصلي!".

نعم.. هكذا كان حافظ من مكرِهِ ودهـائِـهِ يُبدي اهتماما بالطقوس والمناسبات الإسلامية، ليُخفي وراءهـا عداوته الكامنة في قلبه تجاه الإسلام وأهله، ويرتكب جرائمه في صمت.. وهكذا فعل الجرو اللاحق من بعده، وهذا حال المللِ الباطنية ذاتِ الوجهين.

بعد تولي حافظ السلطة، بدأت الملاحقات البوليسية والاعتقالات، وبدأ الشكل الإرهابي لدولة البعث يتبلور، وكان من أحد المواقف التي أثَّرت في نفسي، اعتقال أستاذنا الرياضيات أثناء إعطائه الحصة لنا، وسحبه من

الصف أمام أعين طلابه.

بعد تعديل الدستور قامت مظاهرات تهتف ضد النظام وحزب البعث، عرفت بأحداث الدستور.

في أحد الأيام سمعت أصوات هتافات بعيدة فخرجت من البيت، ودفعني الفضول أن أتابع مصدر الأصوات إلى أن وصلت إليها.

كانت تلك الجلبة في حي «الصليبة» وهو من الأحياء الشعبية في اللاذقية، وكان المتظاهرون أولادا من طلبة المدارس ومعظمهم لا يتعدى العاشرة من عمره، كنت أراقب.. حين برز جندي مدجج فجأة، يلبس خوذة ويحمل رشاشا ويتقدم باتجاهنا ويفتح النار!

بلمح البصر تفرق الجميع واختفوا من الطريق، أما انا فقد هرعت إلى أقرب محل واستندتُ إلى جداره، والتصقت بزاوية الحائط.. مالبث أن أقبل بعدي شاب آخر، ووقف ملاصقا لي مباشرة على نفس الجدار، ولكنه لم يكن محميا، لاني كنت أنا على الزاوية وكان هو بعدي.. أي كان مكشوفا من جهة العسكري الذي يطلق النار،.. نظر إلي وابتسم، ولكنها كانت الابتسامة الأخيرة... وفجأة بعد ثوانٍ رأيته ممدداً على الأرض، منقلبا على ظهره وبركةٌ من الدم حول رأسه... للوهلة الاولى لم أدرِ ماذا حدث، بقيتُ متسمرا مكاني أراقبه... شاهدتُ ثقب الرصاصة في جبينه والدم يتدفق منه... كان العسكري المجرم لايزال يتقدم باتجاهي، ولم يبقَ بيني وبينه إلا أمتارٌ معدودة، وأيقنتُ أني هالك لامحالة... وإذ بعسكري آخر يهرول إليه مسرعا ويجذبه من كتفه مشيرا إليه بالعودة.. ليكتب الله لي النجاة من قتل محتَّم.

وقع حينها عدد من الشهداء.

حدثَ أنه في تشييع أحد الشهداء ربما ذلك الشاب أو غيره، أُطلق الرصاص على المشيعين، فرموا التابوت وتفرقوا.. لاحظوا كيف أن التاريخ يعيد نفسه! (إطلاق النار على الجنازات).

أبي والاستعمار الفرنسي

قبل المضي في مذكراتي أنقل مقتطفات من مذكرات والدي –رحمه الله– لمقارنة الحكم الفرنسي مع الحكم النصيري من جانب، ولبيان صراع أبي مع حزب البعث والسلطة النصيرية وماكان له من أثر كبير في التحامل علي وعلى أخي في التحقيق والمحاكمة، فقد انتقموا منه عبر أولاده.

ينحدر أبي من عائلة عسكرية فقد كان جده حاكما (قائم مقام) لبيروت واستقبل "غليوم" امبراطور المانيا عام ١٨٨٩ فيها، وكان والده (جدي) ضابطا مرموقا في الجيش العثماني وكان واليا على مرسين، وتشاء الأقدار أن يتوفى جدي باكرا في دمشق ويترك زوجة وولدين.

ولد أبي في دوما وبدأ بداية صعبة في حياته، فقد نشأ يتيما، وجاهد كثيرا في مسالك الحياة، وانتقل في سنوات المدرسة إلى دمشق حيث عايش فترة الاستعمار الفرنسي، التي ألهبت شعوره وحماسه ضد الظالمين، وكثيرا ما كان يروي لنا قصص صراع الشعب السوري مع المستعمر الفرنسي، وكيف كانوا يرددون في مظاهراتهم النشيد الوطني العريق:

يا شباب العالم المحمدي	**ينقص الكون شباب مهتدي**
فأروهم دينكم كي يهتدي	**دينَ عقل وضمير ويد**

كانت مدرسة التجهيز في دمشق مركز انطلاق المظاهرات، ولم يحصل في عهد الاستعمار الفرنسي ان اقتحم الجنود الفرنسيون المدرسة لما لها من تقدير واحترام، بل كانت حين تمر الجنازة أمام الجندي الفرنسي، يقف باستعداد ويرفع قبعته احتراما للميت..

أنقل كفاح أبي ضد الفرنسيين كما كتبها في مذكراته:

عام ١٩٤٢-١٩٤٣: إضراب التجهيز في ذلك العصر كان يعني إطلاق شرارة الإضرابات والمظاهرات في كل سورية، حيث كانت هذه المدرسة تضم المئات من الطلاب الشباب وتجسد الكفاح الوطني وتقوده، في الوقت الذي لم يكن للجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) أي دور نظراً لضآلة حجمها وقلة عدد طلابها.

العام الذي كنتُ فيه في الصف السادس كان حافلا، ففي إحدى المرات خرجنا بمظاهرة صاخبة فإذا بالشوارع المحيطة بالمدرسة مطوقة برجال الأمن للحيلولة دون وصولنا إلى مركز المدينة.. كان من الطبيعي أن تنشب معركة بيننا وبين الدرك الذين كانوا يسدون الطريق مابين حديقة البرلمان وبناية «كسم وقباني». كان سلاح الطلبة الحجارة التي مصدرها الأراضي الزراعية المحيطة بالمدرسة. أما الدرك فكانوا بهراواتهم وخوذاتهم الحديدية.

كنت في ذلك العمر مشتعلا حماساً، وكنت أعشق المواجهات النضالية، وكنت أعددتُ لمثل هذه المواجهات بالسرِّ عن والدتي «مقلاعاً» لقذف الأحجار. وكانت والدتي تخاف عليَّ لأني أنا اليتيم الفقير كنتُ كبيرَ أولادها وأملَها.. وهكذا ولأول مرة في حياتي شاركتُ في معركة بالأحجار ضد

الدرك باستعمال مقلاعي، وقد أبليت بلاء حسناً.

كانت المعركة طويلة واستمرت ساعات وأخيرا اضطررنا للتراجع نحو المدرسة، فكنا نتقهقر مع استمرارنا في المحاجرة، وكانت عناصر من الشرطة تلاحقنا، وكنت من أواخر الطلبة الداخلين إلى حرم المدرسة، وكان أحد الطلبة الكبار «فوزي» يقوم بسحبنا بسرعة إلى الداخل خوفاً علينا ثم أغلَق الباب.. وما أن أغلق الباب خلفنا حتى دوت طلقات نارية من الخارج، وإذ بالدماء تسيل تحت الباب مُخلِّفةً الطالب الشهم «فوزي اللحام» شهيداً ليلتحق بقوافل الشهداء التي لم ولن تتوقف على مر الأيام.

كان مقتل طالب على أيدي رجال سلطة المستعمر حدثاً كبيرا يهزُّ سورية.. شُيِّع الشهيد بجنازة ضخمة تحولت إلى مظاهرة طافت شوارع دمشق، والهتافات تشق عنان السماء بسقوط الاستعمار وبترديد: لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله. (لم يطلق أحد النار على الجنازة.. عجيب! هذا في عهد فرنسا).

فوزي القاوقجي برواية أبي -رحمه الله-:

من الضباط الذين كانوا في الجيش الفرنسي، ثم التحق برجال الثورة ضد فرنسا وأصبح فيما بعد من أعظم المجاهدين. قاتل في سورية وحُكم عليه بالإعدام من قبل الفرنسيين، وقاتل في فلسطين وحكم عليه بالإعدام من قبل السلطات البريطانية.. وبينما كان في طريقه إلى العراق لاحقته طائرة إنكليزية وفتحت النار عليه.. فغطاه رفاقُهُ المخلصون بأجسادهم وأصيب بعدة رصاصات استقرت في جسده وبقيت فيه بقية حياته، واستمر

في جهاده حتى أول هزيمة للجيوش العربية في عام النكبة ١٩٤٨.

في السبعينات روى لي قبطان سفينة إيطالية أنه كان في إسرائيل، وسمع هناك بوفاة جنرال عربي (لم يحفظ الإيطالي اسمه)، واحتفل اليهود بالرقص في الشوارع فرحاً بموته، فعلمت أنه القاوقجي بعد ما سمعت في الأنباء نبأً متواضعاً عن وفاته.

هذا الذي جاهد طيلة حياته للقضايا العربية وطبَّقتْ شهرتُه الآفاق وسمَّتهُ الجماهير في دمشق الأسد المغوار، ومات فقيراً وفي جسده رصاصٌ صليبي، لم يعد يذكرُهُ أحد، ومعظم الأجيال الحالية تجهلُهُ، بينما تُدَرَّسُ أسطورة جول جمال في المدارس، وما هي إلا كذبةٌ من نسيج الخيال، ابتدعها صديقي كاظم زيتونه سامحه الله لكسب قلوبِ مسيحيي الساحل أيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦. كتبتُ خطابا إلى رابطة المحاربين القدماء للاتصال بالمحافظة من أجل تخليد اسمه في شارع أوساحة وقلت إن من العار أن ينسى هذا البطل، وقد علقتُ صورة له في الرابطة.

أبي وحكم البعث

كان أبي متفوقا في دراسته رغم فقره، واستطاع أن يحقق نجاحات جيدة في الحياة، والتَحَقَ بالسلك العسكري واندرج في عدة دورات عسكرية في فرنسا وموسكو والقاهرة، وحصل على درجة أركان حرب، وترفع إلى رتبة عقيد واستلم قيادة القوات البحرية في سوريا عام ١٩٦٢. لم تدم قيادته طويلا إذ حدثت ثورة آذار بقيادة حزب البعث عام ١٩٦٣، ثم أُرسِل في مهمة إلى العراق بهدف إبعاده، وصدر أمر تسريحه وهو في العراق، خوفاً من أن

يُحدِثَ تمرّدا أو بلبلة في صفوف الجيش.

لم تستطع الدولة البعثية المهلهلة أن تستغني عن خبرته وعلمه رغم كراهيتهم له، فاستعانوا به مرة أخرى عام ١٩٨٠ وعيَّنوه مديرا عاما للموانئ السورية.

منصبه هذا (مدير عام) عرَّضَهُ للاصطدام مع كبار المتنفذين الفاسدين في البلد، من أجل تمرير صفقاتهم، وكذلك فإن ميولَه الإسلامية أثارت حفيظة جهاز الأمن.

في أحد المواقف اتصل به جميل أسد (شقيق الرئيس المجرم) من أجل تمرير صفقة ودخل معه في جدال، ثم قال مستنكرا: (كل من يستلم مركز في هذه الدولة يقول أنا ربكم الأعلى؟) فقال له والدي: «إن كنت تقصدني، فأنا آسف أن أسمع هذا الكلام من عضو مجلس شعب، وإنما أنا أنفذ القوانين التي تضعونها أنتم».. وانتهت المحادثة بقول جميل: «إذا بدك توقّف بوجهنا من هلق ورايح رح تشوف».

بعد أيام وصلت برقية من نائب رئيس مجلس الوزراء لشؤون الخدمات آنذاك فهمي اليوسفي إلى أبي تنصّ على تمرير معاملة جميل أسد!

يقول أبي في مذكراته:

لاحظتُ أنه لا يوجد في المديرية مكان للصلاة فخصصتُ غرفة لذلك.

في اليوم التالي مباشرة صباحا (لاحظوا سرعة ردِّ الفعل) رن جرس الهاتف وكان المتكلم رئيس فرع المخابرات في اللاذقية -واسمه عدنان بلول- وبعد تحية صباح الخير باستعلاء، قال: ما هذا المسجد الذي يقام في مديريتكم؟

فقلت أتمنى أن يكون مسجداً، وما هو إلا غرفة يصلي بها من يريد الصلاة بدل أن يصلي الموظفون في مكاتبهم... فقال في هذه الحالة يجب

أن يكون للمسيحيين كنيسة، فقلت وليكن ذلك، فقال: لا هذا لن يكون، فسألته: بأي صفة تتكلم؟ فقال بصفتي المسؤول الأمني في المحافظة، فقلت له: إن لك أحد ثلاثة طرق للاتصال معي، إما عن طريق رئاسة الأركان العامة، أو عن طريق وزير النقل، أو عن طريق المحافظ، فانفجر غاضباً وصاح: (أقسم بالله لأزعجك في عقر دارك) وأطبق الهاتف.

بعد دقائق اتصل بي رئيس المخابرات العامة علي دوبا من دمشق، وقال لي بلهجة ودية: لقد رحبنا باستلامك هذه الوظيفة ولكن رئيس الفرع أعلَمَنا أنك تضع العراقيل في طريق عمله.. فقلت له: الذي وصلك مبالغٌ فيه، وبعد يومين لديَّ عمل في دمشق فإن شئتَ نلتقي وسأشرح لك الأمر، فقال: أتمنى ذلك.

سافرتُ إلى دمشق وتوجهتُ إلى مقر علي دوبا قرب تمثال عدنان مالكي في المهاجرين حيث قادني حراس متتابعون إلى مكتبه، استقبلني بحرارة ولطف وفوجئت بنعومة شكله، وكرر الإعراب عن سروره بتسلمي الوظيفة، ثم دخل في الموضوع، وسأل ما قصة المسجد؟ فشرحت له الأمر، فاستغرب وقال: قال لي عدنان أنك اقتطعت قسماً من المكاتب وعملته مسجداً!

ثم رويتُ له ما تفوَّهَ به من تهديدات وعقبتُ قائلا: أظن أني لما كنت قائداً للبحرية كان عدنان في المدرسة الإبتدائية.

أثناء حديثي عن عدنان كان دوبا يدور في مقعده يُمنةً ويسرة بعصبية وقال أرجو أن لاتكمل، لأني أعرف أن عدنان مهذب ولا أكاد أصدق هذا عن عدنان.

دارت بيننا عدة أحاديث، وكان من جملة ما قلتُهُ له: أنا مسلم وأعتز

بإسلامي، ولا أخشى إلا الله. فعقَّب: إن الإسلام دين قيم. ووعدني بأن الأمور ستكون على ما يرام، ولما نهضتُ مودعاً نهض ورافقني إلى الباب الخارجي.

بعد عودتي إلى اللاذقية وجدت على طاولة المكتب ورقة كتب عليها: سيادة العقيد، صباح الخير، حضرت ولم أجدكم، موقَّعة من عدنان بلول. فعرفت أنه تلقَّى ما يلزم للاعتذار وكأنما تقصَّد أن أكون غائبا عند حضوره.

هنا انتهت رواية أبي.

هذه الصدامات كان لها أثر سلبي لاحقا، في التحامل علي في التحقيق والمحاكمة، وقد حمل جميل الأسد حقدَه طويلا.. فبعد سنوات أمر بمداهمة بيتنا، واقتحموه كالكلاب المسعورة، وهم يصيحون «أين العقيد؟».. ولحسن الحظ كان أبي غائبا.

كان والدي من جملة الناس العاديين غير الملتزمين بالإسلام ولكنه كان يمتلك الحمية والغيرة على دين الله، ولطالما كان يحلم بالجهاد في فلسطين والجزائر، وكان كثيرَ القراءة والمطالعة، واسعَ العلوم، ففتح الله قلبه إلى الهداية حين أرادنا أن نلتزم بالصلاة (أنا وإخوتي) فلم يرَ بُدًّا من أن يبدأ بنفسه، فكيف له أن يأمرَنا بالصلاة وهو لايصلي، وهذا ماكان، وظل يلاحقنا حتى صارت الصلاة جزءا من حياتنا، فكانت صلاتُهُ من جملة الأمور التي فاقمت النقمة علينا.

كذلك أمي، فقد شرح الله قلبها للايمان وارتدت الحجاب، وكانت من النساء المتميزات بحسن خطابها وكرمها وتواضعها وحبها للمساكين، ومحط أنظار النساء في البلد، وكانت محبوبة في محيطها.

مروان حديد

أنقل مما جاء عنه في ويكيبيديا، الموسوعة الحرة:

هو مؤسس وقائد حركة الطليعة في سوريا، عُـرِفَ بين الأخوان بأنه من أكثرهم تمسكا بالدعوة إلى الإسلام وتعاليمه، ومخلصٌ وفيٌّ ومُحِبٌّ لإخوانه، وارتكز عملُه على جامع النوري الشهير في حماة، وكان زاهداً في الدنيا مستغرقاً في الآخرة، وكان كثير الصلاة والبكاء والدعاء في خلواته.

سافر مروان إلى مصر ودرس فيها، والتقى بتلاميذ الشيخ حسن البنا الذي طالما أحبه ولم يعرفه، والتقى بسيد قطب وإخوانِه، ونشِطَ كثيراً في الدعوة ونصرتها.

وكان لمحنة الإخوان واضطهادهم وإعدامهم في مصر بالغ الأثر وأعمقَه في قلبه وحسه المرهف، وكان عبد الناصر يومها زعيمَ العرب وبطلهم، ولكنه في الداخل كان جلادَ مصر ومرعبَها.

خرج الطلاب في مدينة حماة عام ١٩٦٤ في مظاهرة احتجاجاً على اعتقال أحد الطلاب الذي كتب على السبّورة آية قرآنية وهي: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون).. ودارت مصادمات بين الطلبة الإسلاميين والبعثيين، وطالَبَ الطلاب في مظاهرتهم مدينة حماة بالإضراب فاستجاب التجَّار وأبناء الشعب وأغلقوا محلاتهم، وتدخل الجيش لرفع حالة الإضـراب، وتفاجأ الجميع بقصف المسجد بالمدفعية والدبابات بقيادة العقيد الدرزي حمد عبيد قائد قوّات المغاوير، والعقيد الدرزي سليم حاطوم ومن ورائهم حافظ أسد وصلاح جديد وعزت جديد ودارت

اشتباكات بين الجانبين انتهت باستشهاد أربعة من المعتصمين.

حاصر الجنود الشيخ مروان داخل المسجد ودخلوا عليه وكبلوه وانهالوا عليه ضرباً بكل ما وصلت إليه أيديهم من أدوات، ثم حملوه في دبابة إلى مبنى دار الحكومة (السرايا) حيث كان الرئيس أمين الحافظ موجودا ومعه مجموعة من الضباط الآخرين.

وكان معروفاً عن أمين الحافظ بأنه بذيءٌ وفاحش اللسان، فعندما رأى الشيخ مروان شتمهُ وسبَّه.

- فقال له مروان: لِتَكُنْ خصومتُكَ شريفة يا أمين.

عندها تدخّل المقدم النصيري عزت جديد وأمسك بلحية الشيخ مروان، وقال له:

- هذه المكنسة لا أريد أن أراها ثانيةً.

فزجره مروان وضربه ضربةً قويّةً برجله أسقطته من فوق درج مبنى السرايا إلى الأرض.

أقيمت محكمة عسكرية برئاسة مصطفى طلاس في حمص قُدِّمَ إليها مروان وإخوانُه من المعتقلين، ودار حوار جريء بينه وبين قاضيه مصطفى طلاس في الجلسات التي كانت علنية وتُنقَل على الهواء مباشرةً جاء فيه ما يلي:

قال طلاس للشيخ مروان: أنت عميل.

- أنا عميلٌ لله.

قال طلاس: أنت مأجور.

- أنا مأجورٌ من الله.
- قال طلاس: حكمتٌ عليك المحكمة بالإعدام شنقاً حتى الموت.

فرد مروان بابتسامة ساخرة: والله يا مسكين لو عرفتُ أنَّ بيدك الموت والحياة لعبدتُّكَ من دون الله.

فضجت الصالة بالتصفيق الحاد والصراخ والاستهزاء بالمحكمة، فقاموا فوراً بقطع الكهرباء عن صالة المحكمة، وتم إيقاف البث الإذاعي المباشر.

وحكم عليه بالإعدام في محكمة صورية، ولكن الحكم لم يُنفذ وأُطلِقَ سراح مروان والمسجونين بعد تدخل الشيخ محمد الحامد وعلماء حماة عند رئيس الجمهورية أمين الحافظ آنذاك.

وشاء الله لمروان أن يختفي بعد هذه المرحلة وأن يعمل بالخفاء، وتنقّلَ بين عدة بيوت لمدة سنتين ونصف تقريباً في دمشق، إلى أن داهمته قوة المخابرات في صبيحة يوم ٣٠ حزيران ١٩٧٥ واعتقل بعد مقاومة مسلحة استمرت لساعاتٍ عديدة.

لم يكن هناك محاكمةٌ سريةٌ أو علنيةٌ لمروان وإنما كان التحقيق المعروف لدى رجال المباحث والمختصين بشؤون التعذيب والتصفية الجسدية، فكانوا يُسمعونَه أصواتاً كصوت زوجته وهي تعذَّب وكأنما يُرادُ اغتصابها حتى أنهكوه.

تعرض مروان للتعذيب بالأضواء المُبهِرة، وكان أخسّ ما اتبعوه معه هو كشف عورته بقصد الإذلال، ثم قطعوا عنه الطعام وأجاعوه حتى خارت قواه، وأحياناً كانوا يقدمون له الطعام بعد أن يمزجوه أمام ناظريه بالأقذار، فصار يأبى أن يأكل منه.

مروان صاحب الطول الفارع والجسد الممتلئ والقبضة الحديدية... ظل صامدا وصلبا في التحقيق وصار أخيراً أقرب إلى الهيكل العظمي منه إلى الجسد العادي، وكان يغيب عن الوعي لفترات متقطعة ويصحو، وقُبيل موته قال لمن حوله: (انقلوا عنّي أن هؤلاء الكلاب «يعني المحققين» لم يحصلوا مني على كلمة واحدة تُشفي صدورهم).

توفى في سجن المزّة العسكري عام ١٩٧٦ ويقال بأنه أعطي حقنة سامة في عنقه، ولم يُسمح لأهله بدفنه في حماة، فدُفِنَ في دمشق في مقبرة الباب الصغير تحت حراسة الأمن المشددة.

حُمّى الاغتيالات والاعتقالات

كان استشهاد مروان الشرارة الرئيسية التي فجّرت الأوضاع في سورية، فبدأت ملاحقة أتباعه، الذين أعلنوا الجهاد المسلّح ضدَّ الحكم النصيري، وشكلوا الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، ووجهوا عدة ضربات موجعة إلى النظام، وتمكَّنوا من اغتيال شخصيات كبيرة في الحكم، وأدخلوا الرعب في نفوس كبار المسؤولين حتى هرب كثير منهم خارج البلاد، وأصبح حافظ يخرج على الناس عبر التلفزيون في خطابات هيستيريائية أطلق عليها الناسُ تهكُّما اسم "مسلسل هذا الرجل في خطر"، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من رأس حافظ اللعين، ففي عام ١٩٨٠ حاولوا اغتياله في القصر الجمهوري أثناء استقباله لرئيس دولة مالي، ولاذ الحرس المرافق له بالفرار، وكان تحت المرمى، لكنَّ مرافقَه انكبَّ عليه وأحاطه بجسمه وهلكَ بدلا عنه، وظنّ الشباب المهاجمون أنهم قتلوه فانصرفوا، وهكذا -وليقضي

الله أمرا كان مفعولا- نجا بأعجوبة، وبدأ عملية انتقام دموية استمرت سنين طويلة ولنصل إلى مانحن عليه الآن.

بعد يومين من محاولة الاغتيال نُفِّذت مجزرة سجن تدمر الشهيرة بقيادة رفعت الأسد قائد سرايا الدفاع، وبدأت حملة ملاحقات واعتقالات واسعة طالت شريحة كبيرة من الناس خاصة من المتدينين والمعارضين السياسيين وكلِّ من له شبهة ولو من طرف بعيد بأحد من المطلوبين، وصدر المرسوم ٤٩ الشهير الذي نصَّ على عقوبة الإعدام لكل من ينتسب إلى حزب الإخوان المسلمين، وصار هذا المرسوم الذريعة القانونية لملاحقة الناس وتنفيذ الإعدامات بهم.

استغل المخابرات حالة الفوضى الأمنية في البلاد، فصاروا يختارون العناصر الإسلامية في كل منطقة، أو اساتذة الجامعة، أو الشخصيات المعروفة ذات الإتجاه الديني، ويقومون باغتيالهم بطرق وحشية وهمجية.

ففي مدينة اللاذقية اختطفوا الأستاذ ممدوح شولحة، الخطيب المميز، من بيته، وعُثر عليه بعد يومين في ضواحي المدينة مقتولا بضربةٍ بالبلطةٍ على رأسه.

كذلك الشيخ العالم عبد الستار عيروط، اختُطفَ من بيته، ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.

داهموا بيت الشيخ عمر زهر الفول، ولكنه لم يكن في بيته وهرب إلى لبنان وكتب الله له النجاة.

بعد اعتقالي بفترة أشهر، داهمت قوات تابعة لجميل الأسد بيتنا بحثا عن أبي ولكنهم لم يجدوه، ولو أنهم ظفروا به للقيَ نفس المصير، ولا سيما

أنه كان هناك حقد شخصي عليه من قبل جميل الأسد كما أسلفت.

كانت هذه الحقبة من أشد الفترات توترا وإرهابا التي مرت بها سورية، وكان الحكم البعثي في خطر حقيقي، فكان في أشرس أوقاته، وكانت الاعتقالات في أوجها، ولأتفه الأسباب، وهنا أورد هذه القصة:

أ.ج. أحد أصدقائي كان يعمل في مكتب عقاري.

مرَّ لعنده صديق له اسمه "عبد الحليم" وسلَّمَ عليه في المكتب، ودار بينهما حديث عادي:

- أ.ج. : «شو الأخبار؟»
- عبد الحليم: اعتقلوا فلانا.
- أ.ج. : الله يسترنا.

بعد فترة يسيرة اعتقل عبد الحليم، وكان مصابا بمرض في القلب، فخاف من التحقيق وسرد كل شاردة وواردة.. وروى ما كان من حواره مع أ.ج.

انطلقت دورية مخابرات وأحضرت أ.ج. لأنه قال "الله يسترنا"، وقالوا له لو لم تكن مذنبا لما قلت (الله يسترنا)، وكلفته كلمة "الله يسترنا" خمسة عشر عاما في السجن.

*** مجموعة أخرى من الشباب الدمشقي:**

زاروا أحد الأشخاص وشربوا عنده الشاي، وبعد فترة اعتقل هذا الشخص، واعترف تحت التعذيب أن هؤلاء الشباب زاروه في بيته وشربوا عنده الشاي، فأحضروهم جميعا، وانتهى بهم المطاف في سجن تدمر والتقيت بهم هناك، وكانت جريمتهم أنهم شربوا الشاي عند فلان!

* **هشام شربجي:**

أيمن شربجي كان على رأس قائمة المطلوبين للنظام البعثي، ولمَّا لم يتمكنوا منه، اعتقلوا أخاه هشام، الذي لم تكن له تهمة سوى أنه شقيقٌ لأيمن (رهينة).

التقيتُ هشام في تدمر وكان صديقا ودودا وذا علمٍ شرعي وحَسَنَ المعشر، وأصيب بنوبات قلبية متكررة أثناء مرافقتي له في السجن، وأخلي سبيله بعد خمسة عشر عاما من سجنه، وتوفي -رحمه الله- بعد عام واحد من إخلاء سبيله.

البرتقالة

روى لي حسام فيما بعد، أنه سأل عنِّي في المشفى وعلم الخبر بأنهم اعتقلوني في ذلك الصباح، وضاق به الأمر وأصابه الغمُّ الشديد، وقال لأحد أصدقائه: "اليوم فقدتُ أقربَ أصحابي".

لم يردْ إزعاج أهلي وتوتيرَهم، وظن أنه ربما لا يطول توقيفي وأعود سريعا فتكتَّم على الأمر ولم يخبر أحدا.. وفي المساء خطر على باله أن يزور جدتَهُ، وذهب إليها وهو مهموم مغموم ولم يخبرها بما حدث لي، ولم يُطِل مقامَه عندها.

همّ حسام أن يغادر بيت جدته، فاستوقفته الجدة وقشرت له برتقالة ودَعَتْهُ لأكلها!

كان حسام في ضيق شديد ولايرغب في الطعام.. أصرّت الجدة.. جلس بضعة دقائق وأكل البرتقالة.. هذه الدقائق كانت كافية لأن تصلَ سيارة الأمن التي كنت أنا فيها إلى الحي وتدركَه قبل خروجه من بيت الجدة.

ودّع جدته ونزل الدرج.. ليلاقي جنود البغي ينزلون من سياراتهم وكأنه على موعد معهم.. فيا سبحان الله، ما أعجب تدبيره "ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد"!

أنقل قصة اعتقالي أنا وأخي كما كتبها أبي - رحمه الله وأحسن إليه- في مذكراته وسماها المصاب الأعظم، أنقل لكم معاناته كما عاشها، وأسأل الله أن يكتبَها له في صحيفة حسناته:

المصاب الأعظم:

كنت في سفر فاتصلتُ بابني المرحوم حسام وطلبت منه أن يأتي بسيارتي الخاصة إلى الكراج وينتظر وصولي. وصلتُ الكراج فلم أجد السيارة ولا حسام، فقلت في نفسي لعله أخطأ في حساب توقيت الوصول، فانتظرتُ، وطال الانتظار، وبعد أن يئست استأجرت تاكسي وانطلقت إلى بيتي وكنت أفكر ما عساه يكون السبب، فغلب على ظني أن مخالفة وقعت وتم توقيف السيارة من قبل الشرطة أو لعله قد حصل حادث اصطدام مع سيارة أخرى، وهكذا كان القلق يساورني إلى أن وصلت البيت ولم أجد أحداً في البيت.

لم يمض سوى وقت قصير على وصولي حتى قرع الجرس، ففتحت الباب ففوجئت بوالدتي ووجهها غارق في بحر من الدموع وهي تبكي بكاءً مراً، فسقط قلبي من بين ضلوعي وسألتُها ما الأمر؟ فأجابت بصوت متهدج والصوت يختنق في حنجرتها: حسام.. حسام..

- ما له يا أمي حسام...

- لقد أخذوه

- من أخذه ؟

- المخابرات.. ألقوا القبض عليه.

أحسست بدوار... بل أحسست أن الدنيا تدور حولي.

أراد حسام قبل أن يتوجه إلى الكراج أن يمر لعند جدته ليزورها، ويبدو أن كلاب المخابرات كانوا يرصدون تحركاته، فلما وصل دار جدته حاصروا الحي وتركوه حتى ينزل من عندها وأخذوه.. كانت الاعتقالات قائمة على قدم وساق في كل أنحاء سورية ولم يكن باستطاعة أي إنسان أن يفعل شيئاً مهما كان مركزه فكل الأمور بيد هُبل وأنصاف الآلهة، كانت سيارتي متوقفة أمام بناية الجدة ومقفلة.

كان من عادة ابني أسامة أن يأتينا كل يوم ولم يأت ذلك اليوم فسألت عنه في مشفاه، فأجابوني غير موجود، فباشرتُ الاتصال مع كل الأقرباء فلم يكن عند أحد منهم، فعدت للاتصال بالمشفى، فردَّت عليّ إحدى زميلاتِهِ بأنه خرج من المستشفى، فكررتُ السؤال بصيغة ثانية: هل خرج أم أخذوه؟ أجابت: أخذوه.. شعرت بصاعقة تخترق عظامي، وكان الانهيار.

يشهدُ الله أني كنت أتمنى لو أوضع على خشبة الإعدام مائة مرة على أن لا أرى أذى يقع لأولادي، لا أريد أن أتكلم عن الشجاعة فمواقفي كانت كثيرة ولله الحمد، ولكن بعد هذا المصاب شعرتُ أني أصبحت جباناً، ليس خوفاً على حياتي بل خوفاً على من هم أغلى من حياتي.

لم أعد أذكر الطريقة التي علمتُ بها أم أسامة بالنبأ، كل الذي أذكره أننا كنا هي وأنا في ذهول. بعد أيام من الاعتقال اتصلت بي أم أسامة من البيت

وأعلمتني بوجود «زوار» في البيت لكي أحضر، ففهمت أن رجال المخابرات في البيت، فأسرعتُ إلى البيت فوجدت رجلين باللباس المدني علمت بأن أحدهما برتبة نقيب، فاستقبلاني بأدب وسألوني عما إذا كان في مكتبتي مجموعة «في ظلال القرآن» لسيد قطب، فسألتهم وهل حيازتها ممنوعة، وهل هناك قرار صادر بمنعها، فأخذوا المجموعة، واستعرضوا المكتبة ولما رأوا مجموعة «ضحى الإسلام» همُّوا بأخذ بعض أجزائها (لأن فيها كلمة إسلام) فتدخلت بحدة وقلت لهم هذه سلسلة كتب تاريخ فإذا أخذتم جزءاً واحداً أفسدتم المجموعة كلها، فكَفُّوا عنها، ولما سألتهم عن الجهة التي أرسلتهم رفضوا الإجابة وقال كبيرهم «تعرف فيما بعد».

التحقيق

لاأحب أن أدخل في التفاصيل المؤلمة والمقزِّزة التي عشتُها في تلك الفترة ولا أحب تذكرَها، فهي تشمل كل ما يخطر في البال، من ضرب بالسياط والدولاب وصفع ولكْمٍ على الوجه، والكهرباء في المناطق الحساسة، وتجويع، وتعطيش، والمنع من إخراجنا إلى التواليت، ولقد تعرَّضْنا إلى مواقف في غاية الإحراج، ودخولنا إلى المرحاض جماعة، وحشْرِنا في الزنازين التي لم نكن نعرف فيها ليلنا من نهارنا.. وما تسمعونه يا سادتي في هذه الأيام من حقارات وسفالة النظام السوري ليس منكم ببعيد.

سألوني أسئلة كثيرة، ولكن السؤال الأول والذي أذكره جيدا: «من هم أفراد أسرتك؟».

استغربت السؤال، لماذا يسألونني عن أسرتي! طبعا والديَّ وإخوتي.

كانت تلك أول مرة أسمع فيها هذا التعبير (الأسرة)، وعندما لم أفهم السؤال، أعادهُ عليَّ «أفراد أسرتك في تنظيم الإخوان المسلمين».. والحقيقة أن هذا التعبير أعجبني فيما بعد.. فتشبيه المجموعة التنظيمية بالأسرة من دواعي المحبة والإلفة بين الأفراد.. ثم أردف: «ومن أميرك؟».

أمير أيضا!.. كمان شيء لطيف.. أسرة وأمير!

وأجبتُ بعفوية «ليس لدي أسرة ولا أمير».. وهنا فُتِحتْ أبواب اللهيب.. إلى أن أنعشوا ذاكرتي بأساليبهم المقنعة، فتذكرتُ أسرتي وأميري! وكادوا يقنعونني أيضا بأني من التنظيم المسلح بل على رأس التنظيم! واتهموني بأني مراسل صحفي أعمل لصالح مجلة النذير التي كانت تصدر للإخوان في ذلك الوقت.

كانت قد مضت عليَّ فترة طويلة بدون ماء أو طعام، وأحسست بالإنهاك والإعياء وبالجفاف الشديد في حلقي، حتى بُحَّ صوتي وأحسستُ أني لم أعد حتى قادرا على الكلام، وأخيرا أحضروا لي إبريقا من الماء فتشبثتُ به بكلتا يديَّ وشربتُهُ كلَّهُ دفعة واحدة!.

وضعوا على الأرض صحناً وسخاً ملتوياً من الأرز وقِدْرا كبيرا (نسميه طنجرة) من المرق، وقالوا كُلْ.. كيف آكل؟ أرز ومرق؟ فالتفتُّ إلى السجان وقلت له: «أريد ملعقة».. وماكدت أتلفظ بكلمتي حتى رأيتُهُ يجري نحوي كالكلب المسعور ويضربُ الأرض بقدميه كالثور الهائج ويصيح: «كُل ولاه».. فجعلتُ أغرف الأرز بأصابعي وأحمل القدر الكبير كله لأشرب منه المرق.

وضعوني بادئ الأمر في زنزانة طولُها متران وعرضها متر واحد، ليس

فيها ضوء ولا ماء ولا دورة مياه طبعا، أشبه بمستودع للبضاعة، وبعد فترة وضعوا معي أخاً آخر – أبو سعيد- وتبادلنا حفظ القرآن فحفظتُ منه سورة الكهف، وحفَّظْتُهُ سورة مريم، وبقيت فيها خمسة وأربعين يوما، ثم نقلوني إلى غرفة جماعيَّة صغيرة مكتظة اسمها الحمَّام!.

أحد المساجين دق باب الزنزانة.. أقبل السجان إليه وسأله لماذا يدق الباب، فأجابه أنه يريد الخروج إلى دورة المياه، وهنا كانت المصيبة.. ففَتح الباب وبدأ الركل والصفع والضرب مع الشتائم المتدفقة ثم أغلق الباب، ولم يخرجه إلى الدورة... بعد ذلك لم يعد يجرؤ أحد على دق الباب، وإذا اشتد به المخاض قد يقضي حاجته في كيس نايلون، هذا إذا كان حظُّهُ جيدا ولديه كيس نايلون، ثم يفرغه في التواليت ويرجعه معه إلى الزنزانة فقد يلزمه مرة أخرى!.

في إحدى المرات استُدعيتُ للتحقيق، ولم أكن أشعر بالوقت من توتر الأعصاب، ولكن أصدقائي أخبروني أنني غبتُ ٦ ساعات، كنت واقفاً طيلة الوقت، ويداي مقيدتان خلف ظهري، وأتلقى الصفع واللكمات على وجهي والسياط على جميعِ أنحاء جسمي، ثم تركني المحقق حوالي الساعة، لم أدر أين ذهب (ربما ذهب يتعشى) وأنا على هذه الحالة ثم عاد بعد أن استعاد نشاطه ودخَّنَ سيجارته، وأكمل استجوابَه، ولما عدتُ إلى المهجع كان وجهي أشبهَ بالكرة المنفوخة (إذ أنني شاهدت نفسي في المرآة صدفة أثناء خروجنا إلى الحمام، فكدت لا أعرفُ نفسي.. فوجهي شديد الانتفاخ، وعيناي تكاد تختفيان من شدة التورم، وملامح وجهي متبدلة بشكل مخيف وجسمي مزرقٌ

بالكامل، ولما بوَّلتُ (عدم المؤاخذة).. كان البول دماً شديد الحمرة.

كان من أسوأِ وأصعبِ المواقف في التحقيق عندما سألوني عن نشاطات والدتي، ثم قال المحقق « أمُّك رئيسة التنظيم النسائي وسوف نحضرها إلى هنا».. كانت تلك الصاعقة التي نزلت على رأسي، وفتَّتْ في عضُدي أكثرَ من التعذيب والسياط، فما كنتُ أتوقع أن تصل بهم الخسةُ والنذالة وتلفيقُ التهم إلى هذه الدرجة، أن يهددوني بأمي، وأخذتُ التهديد على محمل الجد، فليس غريبا عن هذه الشرذمة المتجردة من أدنى المستويات الأخلاقية والإنسانية القيام بأي عمل، وبقيت لفترة طويلة متحسباً على أعصابي.. خاصة أنه قد حدث فعلا اعتقال العديد من النساء.

حتى أخي الصغير.. سألوني عنه، فقلت «إنه طفل عمرُهُ سبعُ سنوات...» قال المحقق ساخرا «بعد سنتين يلتحق بالتنظيم وبنُجيبُه».

بعد نحو شهرين أو أكثر، طلبوا مني أن أبصم وأنا معصوب العينين، فبصمت على الورقة وظننت أن الأمر انتهى، فقلب الورقة الثانية وأعاد الأمر «ابصمْ»، فبصمتُ ثانية، ثم الثالثة فالرابعة.. حتى التاسعة.. وهمس المحقق في أذني بلهجة المنتصر: «عندما يسوقونك إلى حبل المشنقة، تقدّمْ لوحدك إلى خشبة الإعدام، ولا تدعْهم يجرُّونَك». ومع ذلك كنت فرحا لأنني علمتُ أن التحقيق قد انتهى وبالتالي انتهى التعذيب.

بعد أيام نقلوني بالسيارة مع إخوة آخرين إلى دمشق.. كنا أربعة متلاصقين في المقعد الخلفي، أيدينا مقيدة خلف ظهورنا بكلبشات حديدية، وعندما وصلنا إلى فرع دمشق بعد ساعات كانت أكتافي متيبسة ويداي متخدرتان تماما.

وضعوني في غرفة جماعية، عادية في الحجم ٤*٥ متر، وكنا فيها حوالي سبعين أو ثمانين شخصا، وعندما حان وقت النوم طلب رئيس المهجع من حوالي عشرين شخصا أن يناموا على جنوبهم متلاصقين مترادفين تماما، ثم أحضر عشرين آخرين وأمرهم أن يناموا فوق العشرين الأولين، أي أن ينزل كل شخص جديد بين اثنين من المضطجعين على الأرض وأن يعاكسهم في الرؤوس والأقدام.. فكان ذلك من أعجب ما رأيت.. وبقي نصف المهجع الآخر ينتظر دوره للنوم.

بعد حوالي شهرين في الفرع العسكري في دمشق، وفي إحدى الأمسيات أقبل الزبانية وبدؤوا يقرؤون أعداداً كبيرة من الأسماء، كان اسمي بينهم، أخرجونا من مهاجعنا، وعصبوا عيوننا، وراحوا يسوقوننا بالضرب والركل عبر الأدراج الملتوية، وكلٌ يحمل كيسا صغيرا، هو كل ما يملكه من ثياب، إلى أن وصلنا إلى شاحنات مغلقةِ الجوانب ولها أبواب حديدية من الخلف، صعدنا إليها.

أمرونا أن نبقى معصَّبي العيون، وبعد أن جلسنا داخل الشاحنات بدأنا نتهامس، كل واحد يسأل جاره، وكان من غرائب الأقدار أن كان إلى جانبي أخي حسام الذي لم أره منذ خمسة أشهر، أي منذ يوم اعتقالنا! كان السفر مناسبة للتحدث مع بعض، وكلٌ حكى للآخر ما حصل معه، وتذكرتُ أبي رحمه الله، إذ كان دائما يقول لنا عندما يرانا سويةً «الله لايفرِّق بينكما»، وهكذا استجاب الله دعاءه ولم يفرق بيننا، وكنا سوية بقية المدة.

تدمر

حفلة الاستقبال:

كانت الرحلة إلى تدمر... انطلقنا ليلا ووصلنا في الصباح الباكر مع طلوع الشمس منهكين.

كان الجلادون بالانتظار.. أنزلونا من السيارات وساقونا إلى ساحة كبيرة.. وجوهُنا إلى الجدران، وكنا حوالي المائة، وبدأت الحفلة.. كان يقوم على التعذيب ثلاث مجموعات، في كل مجموعة أربعة جلادين.. يضعون الرجل في الدولاب، بحيث ينحصر رأسه من عند خلف رقبته ورجلاه من تحت الركبتين وهما مثنيتان داخل الدولاب.. واثنان يلفان العصا على القدمين ويشُدانِهما للأعلى، واثنان آخران يبدآن بالجلد بالتناوب، كل واحد من جهة.

كان الرعب يملأ قلوبنا، وصرخات الألم تختلط بوقع السياط المنهمرة.

جاء دوري، واستسلمتُ لقدري وأنا أتمتم ببعض آيات الله.. أتذكر أنهم وضعوني في الدولاب ولفوا العصا حول قدميَّ بشدة حتى خلتُهما سوف تنقطعان، وانهالوا عليهما ضربا من الجانبين، لم أعد أذكر الفترة بالضبط وكأنها مُحِيت من ذاكرتي، يبدو أني غبتُ عن الوعي، ثم استفقتُ على جلاد يمسك دلواً من الماء ويصبه فوق رأسي والماء يغرغرُ في فمي يكاد يخنقني، وأنا مستلقٍ على ظهري.. بادئ الامر نسيتُ أين أنا، ولم أفهم ماذا يحدث؟ واحتجتُ برهة من الوقت حتى عدتُ إلى رشدي، ولم أعرف كم استمرت فترة

الضرب، وكان ذلك من رحمة الله بي إذ أني لم أحس بالعذاب طويلا، وكانت الغيبوبة بمثابة التخدير، وصرفهم الله عني، لأنهم يملُّون من الذي يفقد وعيه فيدعونه، ويفضلون أن يستمتعوا بصراخ غيره من المعذبين.

كانوا يسخرون ويصيحون في نشوة:

«ولاتحسبنّ الذين دخلوا سجن تدمر أمواتاً، بل أحياء بأيدي الشرطة يعذبون».

المهجع:

بعد رحلة بائسة من السفر، ثم حفلة الاستقبال التي استمرت عدة ساعات، قادونا نعرجُ متثاقلين والسياطُ خلف ظهورنا، وأدخلونا أحد المهاجع وأغلقوا علينا الباب.. تنفسنا الصعداء وأحسسنا بشيء من الأمان، كان المهجع كبيراً، حوالي مائة متر مربع، ليس فيه شيء غير الجدران القاتمة وطاقات فولاذية في السقف تُرى من خلالها السماء، وهي طبعا لمراقبة السجناء، فكان يطلُّ علينا الشرطي بين الفينة والأخرى ويتسلى بنا.

لم نجد في المهجع ماءاً وكان الحرُّ والجفاف والإنهاك قد أخذ منا مأخذه، وأحسست بحلقي يطقطق من العطش، وبالرغم من العطش الشديد نمنا من شدة التعب، وأذكر أني فقت على حركة أحد الإخوة يوقظني.. كان قد جمع بعض الماء من الحمام ودار علينا يسقينا، كانت حصَّة الواحد مقدار كوب صغير من القهوة، شربنا وحمدنا الله واستغرقنا في النوم.

كان في المهجع دورتا مياه، علينا أن نتدبر أمورَنا كلَّها من قضاء الحاجة والجلي وتعبئة الماء للشرب وشطف المهجع والغسيل والاستحمام في هاتين الدورتين، فكان هناك وزارة خاصة لتنظيم أمور المياه وتسيير الدور، وأحيانا

كنت أنتظر ساعة أو أكثر حتى يحين دوري لقضاء الحاجة، وفي الاستحمام كانت حصَّة الواحد مقدار إبريق واحد أو اثنين في أحسن الأحوال.

رأينا في أرض المهجع وجدرانه احتفارات لطلقات رصاص وآثار دماء، كما أخرجنا من المراحيض كثيرا من الظروف الفارغة من الطلقات، وكانت هذه شواهد من مجزرة تدمر التي نُفِّذتْ قبل قدومنا بحوالي ستة أشهر، حين قام الصناديد من سرايا الدفاع (الخائرون على الجبهات) بقيادة رفعت الأسد - المعارض السوري الحر حاليا ويا للمهزلة- بالهجوم على السجن، وإلقاء القنابل اليدويَّة من الطاقات على المساجين، ثم تمشيط المهاجع والإجهاز على من بقي منهم على قيد الحياة... وراح ضحيتها ثمانمائة إنسان.

في صبيحة اليوم التالي كان أحدنا قد فارق الحياة، وكان جسمه ووجهه متورمين بشدة، وآثار النزوف بادية على وجهه ورأسه.. علمت أن المخابرات لما سلموه إلى الشرطة في السجن، أوصوهم بالقضاء عليه لأنه من التنظيم المسلح.

حضر الشرطة وأخرجوه في بطانية، ثم استدعوا عناصر البلدية فحملوه ومضوا به ليدفن في الصحراء.

عبد الحليم:

كان عبد الحليم مريضا بالقلب، وكانوا يسمحون له بأخذ دوائه عندما كان في فرع التحقيق، ولكن عندما وصلنا إلى تدمر نفذ منه الدواء، وبعد أيام قليلة بدأت أعراض المرض تظهر عليه، وأصبح عاجزا عن المشي والوقوف حتى الكلام، ولم يكن في وسعنا فعل شيء، لأن الشرطة كانوا أشبه بالوحوش الهائجة يستحيل التواصل معهم، إلى أن استيقظنا ذات صباح ووجدناه متوفيا، رحمه الله.

هذا هو تاريخ حكم الأسد الأب وجرائمِ أخيه رفعت، نراها اليوم على يد الأسد الابن وأخيه ماهر.. أليس التاريخ يعيد نفسه؟

الشرطة:

مع مرور الوقت بدأنا نشعر أن المهجعَ بيتُنا، وأصبحنا نألفُهُ، وحُلُمُنا إذا خرجنا منه أن نعود إليه، وصار هذا المهجع يعجُّ بالنشاط والتعارف والتدارس، ولا يعكر صفوَنا إلا مجيء الشرطة.. إذ كان لنا لقاء يوميٌّ معهم على التفقد، فنخرج جميعا إلى الساحة ونقف في أرتال بانتظار مجيء الرقيب ليحصي عددنا، وهم يصيحون علينا «يا مجرمين يا قتلة».. ولابد في كل مرة من أن يَلقى بعضُنا نصيبا من الأذى من ضرب بالعصي، أو قضبان الحديد، وكانوا يتعمدون ضربَنا على رؤوسنا، فندخل من التفقد ودماؤنا تسيل من رؤوسنا، أحيانا أخرى يسحبون أحدنا إلى وسط الساحة ويجتمعون عليه ضربا كما تجتمع الذئاب على فريستها، حتى يغمى عليه، ثم يخرج اثنان من الإخوة ليجروه إلى داخل المهجع.

كان المجروحون يُهرعون فور دخولهم إلى المهجع إلى الحمامات، والدماء تسيل من رؤوسهم ويغسلونها بالماء، وكنت دائما أحذرهم من هذا الأمر، فمن الخطأ غسل الجرح بالماء، مخافة أن يلتهبَ الجرح ويصيبَه الإنتان، ومن العجيب أنه لم تحدث ولا حالة التهاب واحدة في هذه الجروح، وكنت أستغرب هذا الأمر، ولاأجد له تعليلا سوى العناية الربانية!

كان الجرح غالبا ما يكون عميقا يحتاج إلى خياطة، فكنا (الأطباء وأشباه الأطباء) نخيطُهُ بإبرة الخياطة العادية وخيط عادي!

والموعد اليومي الآخر كان إدخال مايسمونه بالطعام، فكان ذلك أيضا مناسبة ذهبية لهم للنيل منا.

التنفس:

سمَّوه «تنفس» وهو حقٌ طبيعي للسجين أن يخرج إلى فسحة السجن ويتنفسَ في الهواء الطلق ويرى أشعة الشمس، أما بالنسبة لنا فكان التنفس قطعا للأنفاس، إذ نجلس على الأرض ملتصقين ببعضنا وظهورنا مَحنيَّةٌ للأمام، ورؤوسُنا تكاد تلامس الأرض، والويل كل الويل لمن يتحرك بأدنى حركة، أو يحاول أن يغير وضعيته.. حتى أني في إحدى المرات احترقت قدمي بحرارة الإسفلت الملتهب، ولم أجرؤ على سحبها، وعندما وقفتُ بعد انتهاء التنفس المنعش لم أشعر بقدمي من الخدر، ولا أعرف كيف دخلتُ المهجع وأنا أعرج وأسحَبُ رجلي سحبا.

كان الشرطة عندما يكونون مسالمين ويحبون التسلية، يبحثون عن صرصور ميت أو فأرة، ويأمرون السجين بابتلاعها، وطبعا عليه الامتثال للأوامر.

في أحد التنفسات، وقع اختيار الشرطة على «عادل عثماني» وهو طبيب أسنان من اللاذقية، وأثقلوا عليه بالضرب والأذى.. ومن حلاوة الروح رفع المسكين يده ليصدَّ الضربَ المبرِّح الذي ينهال عليه من كل جانب وصوب.. فازداد هياج الشرطة، واعتبروا هذه الحركة (رفع اليد) تمردا وعصياناً، فكالوا له الصاع صاعين، وفي نهاية حفلتهم أمسكت كل مجموعة منهم أحد قدميه وفسخوه من رجليه.. ثم تركوه هامدا بدون حراك.. حمله الإخوة إلى المهجع، ومات بعد أيام، رحمه الله.

البلدية:

وهم السجناء من العساكر المسجونين لقضايا مخالفات عسكرية، وغالبا ما كانوا من الطائفة النصيرية، ويكلّفون بالأعمال الدونيَّةِ مثل الطبخ وتوزيع الطعام على المهاجع وجمع القمامة والحلاقة (بالموس) لنا، ورغم أنهم سجناءُ مثلُنا، ويفترض أن يتعاطفوا معنا، لكنهم كانوا أسيادا علينا ويفرِغون أحقادهم فينا بإذن من الشرطة بل كانوا أحيانا أشد إيذاءً من الشرطة.

أما الحلاقة وما أدراك ما الحلاقة، فكنا نرى فيها الأهوال، وكانت حلاقةُ الذقن أقربَ إلى السلخ، وحلاقةُ الرأس أقرب إلى النتف.. وفي إحدى المرات بينما كنت واقفاً إلى الحائط أنتظر دوري إلى الحلاق، إذ حضر أحدهم إلي ورأيتُ قدميه واقفا إلى جانبي ثم هوى على عيني بشيء لم أعرف ماهو... أحسستُ بمثل سيخٍ حامٍ في وجهي، وبقيتُ واقفا متسمرا مكاني أنظر موقع قدميَّ، فرأيتُ الدم يقطر إلى الأرض، ومازال أثر الضربة في حاجبي حتى اليوم.. والحمد لله الذي جعله يكتفي بهذا القدر من الأذى.

وكذلك الحمّام.. إذ كانوا حريصين على نظافتنا! فعندما يصيحون علينا : «بالشورت».. كنا نخلع ثيابنا في ثوان، وننطلق بالسراويل الداخلية ركضا إلى الحمامات.. وكانت صدورنا وظهورنا العارية تفتح شهيتهم للضرب، فيلاحقوننا بالسياط في هوس وجنون، وكأنك تشاهد أفلام رعاة البقر وهم يلاحقون مواشيهم.

أذكرُ أحد المواقف مرة.. إذ كنا عائدين من الحمام، وقد وقف شرطيٌ على مدخل باب أحد الساحات..

استرقتُ النظر بطرف عيني فرأيتُهُ يحمل كرباجاً أسوداً ثقيلاً، وكلما مرَّ سجين أمامه هوى به على ظهره.. كان ممرا إجباريا.. وكنت قد اقتربتُ كثيرا، وعندما صرت إلى جانب الشرطي، صحت في قلبي ومن أعماقي: « يا الله».. الاستجابة كانت فورية وبالتوقيت المناسب تماماً... إذ وقع الكرباج من يده... وبينما التقطه من الأرض كنتُ قد عبرتُ الباب بسلام.

أما الصلاة فهي الجريمة الكبرى، فمن ضُبط متلبساً بالجريمة فقد استحق أقصى العقوبات، وأعني بالصلاة هنا صلاة القلب والعينين طبعا، فتحريم الصلاة العادية أمر مفروغ منه، ولكنهم كانوا يراقبوننا ويحاسبوننا على صلاة عيوننا، إذ كنا نصلي إيماءاً، فكان جلوس أحدنا لفترة مستمرة على وضعية واحدة مدعاة للريبة، فصرنا نُموِّهُ بعد ذلك ببعض الحركات أثناء الصلاة.. في إحدى المرات ضبطوا أحد الإخوة يصلي.. أخرجوه إلى الساحة وربطوه من رقبته، وراحوا يطوفون به على هذا الحال حتى مات اختناقا.. رحمه الله..

ونكايةً بالدين ولجهلهم كانوا في رمضان يخرجوننا إلى الساحات ويأمروننا بشرب الماء.. فكانت هذه سُقيا لنا من الله.. طبعا كنا نكمل صيامنا.. فالإكراه ساقط شرعا...

توصية خاصة بالمثقفين:

عندما وصلتُ إلى تدمر وعند دخولي ساحة الاستقبال، سألني شرطي: «ما تدرس؟».

سررتُ من السؤال، وقلت في نفسي جاء الفرج فلعلهم يحترمونني إذا

علموا أني طبيب! فأجبتُهُ بثقة: «أنا طبيب».

وهنا كانت الكارثة، فإذا به يصيح على زملائه: «تعالو وشوفو هالدكتور»، وسرعان ما توافد قطيع الذئاب وتحلَّقوا حولي، وأخذوا يعيدون السؤال عليَّ بين الرفس واللطم: «أنت طبيب ولاه؟ شو جابك لهون يا خاين الوطن؟».

أستاذُنا في كلية الطب «أبو الخير الخطيب» رحمه الله.. علموا أنه أستاذ جامعة وحفظوه، فعانى الكثير ولفترة طويلة، فكانوا دائما يطلبونه بعبارة «أستاذ الجامعة تعال إلى هنا»، ويتقصدون تعذيبه وإهانته، ويأمرونه بتنظيف الحمامات والمراحيض.

بعد ذلك تعلمّنا الدرس، أن المثقفَ في السجن جريمتُهُ مضاعفة، إذ أنه العقل المدبر في التنظيم، وهو الذي غرر بالبسطاء من العامة والجهلة، علماً أن طلبة الجامعة كانوا يشكلون شريحة كبيرة في السجن.. ولذلك وفي أحد التنفسات، كنا جالسين منحنين إلى الأرض ورؤوسنا بين أرجلنا، جاء الشرطي وركل أحد الجالسين وسأله «شو قاري ولاه؟» — ويقصد ماذا درست- فأجاب الأخ: «صانع فرَّان سيدي»!

فسأل الثاني «وهنت ولاه؟» فأجاب: «بياع كازوز»!

فسأل الثالث: «وهنت؟» فقال «بلَّاط سيدي»!

فقال «يخرب بيتكن آفيكم حدا متعلم!».

وأحيانا أخرى كانوا يسألون أحدنا عن تهمته.. فكانت كلمة «إخوان» هي أسوأ جواب ويثير غضب الشرطة وحنَقَهم...وفي إحدى المرات سألوا

سجينا في المنفردات (قسم خاص للزنزانات): ما تهمتك؟» فقال: «لواطة» فنجا من العقاب!

ومرة أخرى أثناء التنفس نادى الرقيب على الجالس في الصف الأول، فحضر إليه (وكان يحمل شهادة دكتوراة في الكيمياء) فأمره أن يحضر «مَمْسحة»، ثم قال له «نظِّف بوطي، بدي ياك تلمعه ولاه كرّ»، فاجتهد الأخ في تنظيف «بوطه»، ويبدو أن الرقيب قد أعجبه التلميع فسأله «شو دارس ولاه؟»

فأجاب السجين: «رابع ابتدائي سيدي»!

فقال الرقيب هازئاً: «رابع ابتدائي وهيك، لكن كيف لو كان معك إعدادي؟»..

ودخلنا المهجع ضاحكين ونحن نقول «لو علم أنه دكتور في الكيمياء»!

رئيس المهجع:

هذا منصب لايطمحُ إليه أحد من المساجين، وكان يُجبَرُ عليه إجبارا، لأن رئيس المهجع هو المسؤول الأول أمام الشرطة، وكثيرا ما كان يَثقلُ عليه الضربُ والتعذيبُ ويصيبُهُ الإنهاكُ والتوتر ويرجو أن يتطوَّعَ غيرُه لهذه المهمَّة الشاقة.

رئيس المهجع هو الناطق باسم المساجين، والمكلف بتنفيذ الأوامر، وواقفٌ دائما على باب المهجع، ومتأهبٌ على مدار الساعة لنداء الرقيب عندما يدخل الساحة ويصيح «رئيس المجع»، وبذلك هو على احتكاك دائم مع الزبانية، ويجب أن يكون سريعَ الإجابة، حاضرَ البديهة، إذ أنه الأقرب إلى بطشِ الشرطة، وتحيتِهم بكرةً وعشياً، وبعبارة أخرى هو الفدائيُّ القابعُ على فوهة المدفع، ونادرا مايسلم من أذاهم.

كان الشرطة يحضرون عند توزيع الطعام، ويطلبون رئيس المهجع إلى الخارج، ثم يبدأ كيلَ السباب والشتائم إليه لأنه لايضبط الصوت في المهجع وأنه سبب الشغب في المهجع، ثم ينال نصيبَه من العقوبة، ويدخل إلى المهجع بالألوان!

«أبو إبراهيم» رئيس مهجعنا وهو من بلدة الكسوة قرب دمشق.. في إحدى المرات طلبوه وقالوا له «يارئيس المهجع أخرِج إلينا المشاغبين».. ولما أجابهم أنه لايوجد لديه مشاغبين.. انهالوا عليه ضربا بالسياط الغليظة على ظهر يديه (وليس على راحتها) وعلى وجهه، حتى دخل المهجع وتقاسيم وجهه ممحية تماما، عيونه لاتكاد تظهر، فمه وشفتاه متورمة بشكل مخيف، ومعالم وجهه متبدلة كليا حتى لانكاد نتعرف عليه.. ويداه منتفختان متورمتان مزرقتان وهو يعتصر من شدة الألم.. جزى الله أبا إبراهيم عنا كل خير.

في المرة التالية حضروا كالعادة، وقالوا له أخرِج لنا ثلاثة مشاغبين.. التفت أبو إبراهيم إلينا، وقال بصوت خافت حزين: يا شباب من يتطوع؟ ماعدتُ أحتملُ أكثرَ من ذلك!

في لمح البصر كان ثلاثة من النمور ينقضون إلى خارج المهجع على أنهم مشاغبين ليواجهوا التعذيب الوحشي، ونسمع الصراخ وأصواتَ الجلد والسياط تصدحُ مدويةً في الساحات تشكو إلى الله ظلم الظالمين.. ويدخل الإخوة بعد ذلك مضرجين بدمائهم.. وأحياناً يحتاجون إلى من يُدخلهم بعد فقدهم وعيهم، الأمر الذي يحتاج إلى جرأة وشجاعة.. فقد ينالُ من يُدخلهم أيضا حصتَهُ ويصيبُهُ مثلُ ما أصابهم.. تماما كما في ثورة سوريا.. فاليوم يشيِع وغدا يُشيَع !

هذه التراكمات المديدة من الظلم والقهر والتعذيب.. سابقا ولاحقا... من الطبيعي أن تولِّد غضبا عارما ورغبة شديدة في الانتقام، وتطلعا إلى ساعة القصاص، ونحن موقنون بأن يوم القصاص آتٍ لامحالة.. وهناك يلقى المجرم جزاء أعماله..

الظلمُ داءٌ والقِصاصُ دواءُ ... والثأرُ للشعبِ الجريح شِفاءُ
أسيافُنا الغرَّاءُ طالَ هجوعُها ... وتململتْ من صمتِها العلياءُ
إن السيوفَ على الجنان ظلالُها ... وعلى السيوفِ المُرهَفاتِ دماءُ
لا يُمنَحُ العيشُ الكريمُ أذِلَّةً أبداً ... ولا يجدي الضعيفَ بكاءُ
العنفُ ليس طبيعتي لكنما ... قد غيَّرتْني المحنةُ الهوجاءُ
يا لائمي في غضبَتي لولا تعي ما ... قصتي.. لمَ ثورتي الحمراءُ؟
هي قصةُ الآلافِ قد طحنتْهُمُ ... هوجُ الرحى والفتنةُ العمياءُ
هي قصةُ الغولِ الذي لا يرتوي ... يهوى الدماءَ وهمُّهُ الإيذاءُ
هي قصةُ الكهفِ الرهيبِ ... ورجعُهُ آهُ السجينِ وغُصَّةٌ ودعاءُ
يا مُنكراً قتلَ العقارب ... إنها أصلُ البلاء وأمُّهُ الشمطاءُ
والخيرُ كلُّ الخير في إفنائِها ... والعفوُ في هذا المقامِ غباءُ
دعني أرى الطاغوت قد دارت ... به كفُّ القِصاصِ وكأسُهُ السوداءُ
ما عاد يُطربني نشيدٌ ... إنما خيلٌ تُحمحِمُ والصليلُ غناءُ
لغةُ الحوار سئمتُها، والحقُ في ... حدِّ السيوف.. وما سواه هباءُ
هيَّا خيولَ اللهِ هيا فاركبي ... طابَ الوغى وليخسأ الجُبَناءُ
هيا سيوفَ محمدٍ هيا اضربي ... تُشفَ الصدورُ.. ويَهلِكَ الأعداءُ

الحارس الليلي:

ليس في تدمر وقت أمان، ولو كان منتصفَ الليل.

عندما تنتهي المهرجاناتُ النهارية ويحلُّ على الدنيا الظلام، لم يكن يحل على المهجع الظلام، إذ أن المصابيحَ مُضاءَةٌ داخل المهجع على مدار ال ٢٤ ساعة للمراقبة.. وهنا يأتي دور الشرطة الذين يجوبون أسطح المهاجع ويتلصصون علينا من الطاقات الكبيرة التي في السقف.. وعادة في كل مهجع طاقتان تُمكِّنُ الشرطيَّ من رؤية معظم أرجاء المهجع، فيأتي الشرطي ويطلب رئيس المهجع أو الحارس الليلي، ويبدأ بالافتراء والتوبيخ لكثرة الحركة أو الضجة، ثم تبدأ العقوبات.

هذا ما حدث في إحدى الأمسيات الباردة حين حضر الشرطي واختار ضحيته من أحد إخواننا، فاستدعاه إلى أسفل الطاقة (الشراقة) حتى يراه، ثم أمره بخلع ملابسه، وأمر أبا إبراهيم رئيس المهجع بإحضار «بيدون» الماء وصبِّهِ عليه، ثم أمره بصفع السجين على وجهه، فلم يعجبه أداؤه، فعَكَسَ الآية وأمر السجين بصفع رئيس المهجع، كذلك لم يعجبه، وهكذا بدأت لعبة تبادل الأدوار بالصفع، ثم انتقل إلى مرحلة الصفع على الوجه «بالشحاطة»، واستبدَّ الحماس بالشرطي من اللعبة فصار يصرخ كالكلب المسعور «أريد أقوى من ذلك يا ابن...» وبعد كل ذلك لم يشتفِ قلبه فقال « أنتما مُعلَّمان».. من أجل عقوبة الغد في الصباح.

بعد فترة أمرونا أن نعيِّنَ حارسا ليليا، ويكون هو المسؤول عن الفوضى في المهجع!.. وعليه أن يقف بوضعية الاستعداد العسكري كالصنم تحت

الطاقة طيلة فترة مناوبته التي هي ساعتان.

حياة السجن فريدة من نوعها، والعلاقات فيها مختلفة ولها نظامها وقوانينها.. هي حياة من نمط خاص يصعب شرحها، ولايعرفها إلا من عايشها، والعلاقات بين الاخوة متميزة جدا وخالية من أي شائبة، والحياة خليط بين قساوة الصحراء ووحوشِها الذين يلبسون ثياب البشر، وبين إلفة وتفاني الإخوة في محبتهم وتوحدهم... وهنا تحضرني هذه القصة...

في إحدى الليالي كان دوري في الحراسة الليلية.. حضر الغرابُ.. أسوَدُ البصر والبصيرة.. نادى من طاقة السقف «حارس ليلي».. تقدمتُ خطوتين وأديتُ التحية العسكرية، وقلتُ «حاضر».. يبدو أن شيئاً ما لم يعجبه!.. بكل بساطة قال «أنت مُعَلَّم» وشتمني ومضى.

انتهت مناوبتي وخَلَدتُ إلى نومي، أو بالأحرى حاولت أن أخلد إلى النوم فكيف يَغمضُ لي جفنٌ وأنا أفكر بعاصفة الصباح!

عندما سمعتُ عواء الذئاب في صبيحة الغد استجمعتُ قوايَ لكي أواجه قدري المحتوم ووقفتُ قرب باب المهجع وأنا أتمتم بالاستعانة والتثبيت من الله.. وبالفعل فُتِحَ الباب وصاحوا «المعلَّم لبرَّه»..

هممتُ بالخروج وصرتُ أمام الباب مباشرة، وإذ برئيس المهجع يمسكُ بي ويردُّني إلى الخلف ويهمس في أذني «ارجع.. خرج مكانك أبو أيوب».

ثوانٍ معدودة وانهالت السياطُ المجرمة.. واختلط صوت السياط بالصراخ الأليم.. شعرتُ كأنها تنهال علي.. وبعد دقائق مديدة وعصيبة فتحوا باب المهجع ودخل البطل أبو أيوب متحاملا على نفسه يجرُّ آلامه وجراحه...

كان ظهرُه مسلوخاً تماماً.. ليس مزرقا بل مسوداً من شدة الضرب.. تجمَّعْنا حوله، حمدَ اللهَ وابتسم.. هكذا كانت المحبة في الله.. لاأذكر ماذا قلتُ له حينذاك.. ولكنّ أيُّ شكر يفي في هكذا موقف؟.. وتركتُ الشكرَ للذي لايُضِيعُ أجر المحسنين..

جزى الله أخي أبا أيوب خير الجزاء.. لقد فداني بنفسهِ.. لله در إخوتي ما أنبلَهم وما أعظمَهم.. وجمعَنا الله في دار رحمته بفضله وكرمه وجعل ثواب تلك الأيام في صحائفنا وشفيعاً لنا وتطهيراً لذنوبنا وتقصيرنا..

وهنا أسوق إليكم قصيدتي هذه: وحش الصحارى..

السجنُ زمجرَ غاضباً يبغني ... وكلابُهُ بنُباحِها تؤذيني
وتراكمتْ فيه السنونَ ثقيلةً ... وتسعَّرتْ أغلالُه تكويني
شَرَعَت تطوِّقُني ترومُ عقيدتي ... لتَفُلَّ عزمي أو يَبيدَ يقيني
فأويتُ من لفح البلاء وبأسِهِ ... لشُجَيرة الإيمان فهي تقيني
فوجدتُتحتظلالهانبعاًجرى ... عذباً فراتاً.. سائغاً يأتيني
ورأيتُ حول النبع أزهارَ الهدى ... فيها الجمالُ ودقَّةُ التكوينِ
قد زادها وهجُ البلاء نضارةً ... وتطيُّباً.. والجذرَ في التمكينِ
وقوامُها المحمَرُّهذا إنما ... من نزفها لا حمرةُ التلوين
تيجانُها خشَعتْفأحنتْرأسَها ... تبكي الأنامَ ودمعُها يُبكيني
وتعارفت أوراقُها فتعانقَتْ ... عَبرَ الغصون بإلفةٍ وحنين
ألفيتُ فيها راحتي وسكينتي ... ووجدتُ أن رحيقَها يحييني
وإذا اهتديتُوجدتُفيها نُصرة ... وإذا ضللتُ فنورها يَهديني

وإذا ادلهمَّ الخطبُ ثم تحطمتْ ... دوني الدروعُ فإنها تفديني

هي إخوتي، هي معشري في غربتي ... هي قوتي، هي قلعةٌ تحميني

ولكم حزنتُ، وكم تملَّكني الأسى ... ولكم رثيتُ بأدمعي وأنيني

أشلاءَ وردٍ مُزِّقت بشراسة ... عبثتْ بهنَّ أصابعُ التنِّين

لكنَّهُ مازال يبعثُ تربُها ... حولي الشذا، وأريجُها يوصيني

أبداً يُذكرني مجازرَ مجرم ... فأرى الدماءَ تلوحُ بين عيوني

ما كنت أنسى صرخةً من مسلم ... ما كنت أنسى دعوةَ المحزون

ما كنت أنسى إخوتي ودماءَهم ... ما دام قلبي خافقاً ووتيني

وحشُ الصحارى دينُهُ إجرامُهُ ... وذرى مناهُ بشفرة السكين

وحشُ الصحارى كيف يفقهُ حكمة ... عَرَفَ الحياة تخبُّطَ المجنون

وحشُ الصحارى كيف يرعى زهرة ... هو لوثةٌ وقذارةٌ في الطين

هو ليس يرعى غير كلِّ خبيثة ... من جنسِهِ أو شوكةٍ تؤذيني

أشهدتُ ربي لن تهونَ عزيمتي ... حتى أطيحَ برأسِهِ الملعون

عبد الوهاب:

في حلكة ظلمات السجون، كان أعداؤنا كثر، أولُهم الرعب، ثم الحزن، ثم الهموم.. لكن كان هناك ما يهزمُهم ويدحرُهم...

أخونا أستاذ الرياضيات الموهوب «عبد الوهاب»، من عمق بحر الألم، ينظم لنا هذه الأبياتَ التي ترفع المعنويات وتعيدُ شحن قلوبنا بدفقةٍ إيمانية...

خيوطُ الحزنِ أكفاني ... سأحرقُها بإيماني

وأحيا باسماً جزلا ... سراجاً بين إخواني

حــبــالُ الــخــوف ثـعـبـانٌ سـأقـطـعُـهُ بـأسـنـانـي
ولــن أبـقــى لــه صـيـداً صـريـعـا بـيـن جــدران
مــبــانــي الــهــمِّ جـاثـمـةٌ عـلـى صـــدري ووجـدانـي
ونـــور الــلــه صـاعـقـةٌ يُــدمِّــرهــا كـبـركـان
ذنــوبــي جــيــشُ أشـبـاحٍ أصــارعُــهــا كـثـيـران
كــوابــيــسٌ مُــروِّعَــة بـجـوف الـلـيـل تـلـقـانـي
سـأبـكـي بـعـدهـا دمـعـاً يُـغــرِّقُـهـا كـطـوفـان
لـعـل الــلــه يـشـمَـلُـنـي بـعـفـوٍ أو بـغـفـران
سـيـبـقـى أخـضـرا عـودي بــإســلامــي وقــرآنــي
ونـــارُ الأرض لا تـجـدي بـتَـحْـريـقٍ لـريَّـانِ
لـكـم جـلـدٌ... لـكـم عـظـمٌ لـكـم أعـنـاقُ إخـوانـي
خـذوهـا نـحـو مـجـزرةٍ تــراهــا عـيـنُ طـغـيـانِ
لـنـا ربٌ.... لـكـم نـارٌ لــنــا جــنَّــاتُ رحــمــن

أبو دان:

في إحدى الليالي الأنيسة أطلَّ علينا الشرطي من طاقة السقف، وأراد أن يتسلى، أو يداعبنا بمُزاحِهِ اللطيف، فأمر الحارس الليلي - وكان «أبو عبدو» رحمه الله- أن يعضَّ سجيناً من أذنه، واشترط عليه حتى يُفلتَ من «القَتْلة» في اليوم التالي، أن يرى الدم يخرج من أذن السجين، واضطر «أبو عبدو» أن ينفذ الأمر، والسجين يولول، فعضةٌ داميةٌ في الأذنِ أهونُ بكثير من الخروج في اليوم التالي إلى حلبة الوحوش.

سُرَّ الشرطيُّ من حسن أداء أبي عبدو، وارتوت شهوته الإجرامية برؤية الدم يسيل من أذن الأخ، وقال له «أحسنتَ يا أبو دان». وأطلق عليه هذه التسمية «أبو دان».

في المناوبة التالية لنفس الشرطي، أقبل إلينا ليعيد المشهدَ مرة ثانية، فصاح أين «أبو دان؟».

حضر «أبو عبدو»، وأمره الشرطي أن يعضَّ سجينا آخر، ولم يغادر مصاص الدماء حتى رأى الدم يسيل من أذنه.

كانت لدينا في المهجع بعض الحبات من دواء اسمه «ريفا» يستخدم لعلاج داء السل، ومن خصائص هذا الدواء أن لونه أحمر فاقع، حتى أنه يَصبغُ البول باللون الأحمر وإذا اختلط بالماء يبدو كالدم تماما!

وضع أبو عبدو» حبة ريفا في جيبه وأبقاها معه تحسباً للحظة الصفر، وحَضَرَ مصاص الدماء كما كان متوقعاً، ونادى :»أبو دان إلى هنا».

أقبل «أبو عبدو».. اختار الشرطي ضحيته كالعادة، وأمر أبا عبدو بالانقضاض عليه.. كان «أبو عبدو» قد وضع الحبة بحركةٍ سريعة في فمه وقرطها، وأطبق فاه على أذن الأخ متظاهرا أنه يعضُّهُ، والسجين طبعا يتابع التمثيلية ويصرخ ويولول، وسالت «الريفا» حمراء على شفاهِ «أبو عبدو» وعلى أذنِ السجين، وانصرف الحمار منتشيا مسرورا، وهو يقول «أبو دان آفي متلو».

رحم الله أبا عبدو، إذ كان في عداد الشهداء.

حسام

كان إدخال الطعام من أشد المغامرات المحفوفة بالخطر العظيم، فالسجينُ مشغولةٌ كلتا يديه بحمل أوعية الطعام الكبيرة (طشت الغسيل

الكبير) أو أكياس الخبز (شوالات)، وبالتالي لايستطيع درء السياط عن رأسه ووجهه، فكانت هذه أفضل مناسبة للذئاب لإيقاع الأذى بفريستهم.

كان الطعام يصلنا بنفس «الطشت» التي تُخرَج بها القمامة، وكثيرا ما نجد القمامة ما زالت في «الطشت» تحت الطعام.

كان يمر الشرطي ويمسك حفنة من التراب او الحصى ويرميها في «طشت» البرغل، الذي هو أصلا مليء بالحصى ولا يحتاج إلى إضافة، أو يبوِّل في الشاي.

الخبز كان يأتينا ب «شوالات»، خبز عسكري مستدير سميك قاسٍ كالحجر، كنت مضطرا إلى نقعه بالماء كي أستطيع أكله.

كانت كمية الطعام قليلة جدا، فالبيضة عادة لأربعة أشخاص والتفاحة لثمانية، ونصف ملعقة لبنة للشخص الواحد أو ملعقة حلاوة، أما اللحمة والدجاج فهي قَطعٌ نـادرٌ ولاتزيد عن لقمة واحدة للشخص، وكنا غالبا نتركها للمرضى لقلتها.

فتَّة الحلاوة كانت من الأطعمة المفضلة لدينا إذ كنا ندخرها ثم نمددها بالشاي ونخلطها مع كسارات الخبز، فتصبح وجبة شهية مناسبة للولائم!

حتى قشر البطيخ.. لانرميه، ونصنع منه مخلل.

كان بعض الإخوة يقدمون حصتهم من الفاكهة هدية للمرضى أو للجرحى، وكثيرا ما كانوا يرسلونها خفية أو يدسونها بين حاجياتهم دون أن يخبروهم يبتغون بها وجه الله، فكان لايدري الآخر من أين وصلته الهدية، وكانت هذه الهدية أقصى ما يمكن أن يقدمه السجين لأخيه (ربع تفاحة أو ملعقة حلاوة).

كان أخي حسام من الذين يفعلون ذلك، وفي إحدى المرات ضبطته.. إذ كنا جالسين إلى الطعام ولاحظتُ أن لدي قطعتين من التفاح (حصتين) فنظرت إلى موقع أخي فلم أجد أمامه شيئاً، وكان قد غافلني ووضع حصته أمامي دون أن ألاحظ، سألتُه «من أين هذه؟» فحاول أن يتهرب من الجواب، فأعدتُها إليه.

كان رحِمَهُ الله من الذين يطبقون قول الله فعلا وعملا «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة».

كان بحوزتنا كمية قليلة من النقود، وكان نظام السجن في وقت من الأوقات يسمح بشراء بعض الحاجيات البسيطة مثل الألبسة والمنظفات، فوصّى حسام على «بيجامة».

وصلت «البيجامات»، فهُرع كل من وصى على «بيجامة» واختار واحدة إلا حسام، فكان آخر من ذهب، وانتظر حتى انتهى الجميع من انتقاء «بيجاماتهم» وأحضر آخر قطعة، نظرتُ إليها فكانت حمراء كريهة المنظر...

كان السجناء يتحاشون اللباس الأحمر أمام الشرطة لأن اللون الأحمر كما هو معروف يثير الثيران بكل أنواعها! وعندما كنا نخرج إلى الساحات ويريد الشرطة تمضية وقتهم والتسلي بأحد المساجين، كان أول ما يصيحون به بشكل عفوي «أبو الأحمر»، فكان السجناء يتجنَّبون اللون الأحمر في ملابسهم.

انزعجتُ من حسام وأبديتُ تذمّري من اختياره، وقلت له ربما أحتاجُها وألبَسُها أنا، وهذا اللون غير مرغوب به كما تعلم، إنه الأحمر، لون الشرطة المفضل.. لم يجاوبني، إذ كان رحِمهُ الله يحترم تقدمي عليه بالعمر (سنة واحدة فقط!)، غاب قليلا وعاد.. حاول أن يرضيني، استبدلها من أحد

الأخوة ببيجامة أخرى حمراء أيضا ولكن أقل حمرة!

أحيانا كان أفراد الشرطة يلاحقوننا بوحشية وهياج أثناء دخولنا إلى المهجع بالسياط على ظهورنا ورؤوسنا، فيدب الذعر بيننا ويحدث الهرج والمرج والتدافع على باب المهجع.. ولكن حسام لم يكن يهرب، وكان يصمد ومن أواخر من يدخلون المهجع.

كان أخي حسام رحمه الله على رأس الطليعة الفدائية المتطوعين لمهمة إدخال الطعام.

كانت إحدى أمسيات السجن الكئيبة عندما فُتِح باب المهجع، واستدرنا جميعا إلى الجدران، وصاح السجان «لبرّا».. أي أدخلوا الطعام.. خرج ثلاثةُ فدائيين لإدخال الطعام، ولم أكن أعلم مَن الذين خرجوا، وبدأ الجلد والضرب.. ثم تلا ذلك صوتُ صيحةٍ رهيبة شقَّت عنان السماء وأدخلَتِ الهلع إلى قلبي، ثم سكنتِ الأصواتُ كلُها واختفى صوت الصراخ... إنه الإغماء، أحسست أنّ الصوت مألوف جدا لدي، مع أنها كانت صرخة يصعبُ التعرفُ على صاحبِها.. أُغلق الباب.. وانصرف الجزارون.. وهرعنا جميعاً نستطلع الخبر.. وكانت الصاعقة.. وكأن خنجرا أُغمد في صدري.. لا أنسى تلك اللحظة.. يا إلهي.. كان أخي حسام.. رحمتَك يارب..

ساد المهجع سكونٌ قاتل.. الجميعُ يراقب في وجَلٍ وصمت.. أقبلتُ إليه وقد انعقد لساني، فماذا عساي أقول، كان يتألم بشدة لكن بصمت والإعياء بادٍ عليه.. عينُهُ حمراء متورمة والدم يقطر منها.. بدا في لحظةِ انهيارٍ لثوان وكأنه أدرك شدة إصابته، بكى، ثم سرعان ما تمالك نفسه، ثم تنهَّدَ

تنهيدة عميقة حزينة تحكي كل معاني القهر والأسى، تشكو إلى الله ظلمَ العباد، وطغيانَ أهلِ الفساد، ثم راح يحمَدُ الله... كان ذلك اليوم من أسوأ وأحزنِ أيام حياتي..

كان أثر السوط واضحا على رأسه، على شكل شريط أحمر مدمَّى، نهايته عند عينه.. وكان يحمل «شوال» الخبز الثقيل بكلتا يديه، عندما تحيَّنَ الجلاد الفرصة ليهوي بحقده الأسود بالكرباج (السوط) على رأسه، ويلتف السوط الغليظ على رأسه وتدخل نهايتُهُ في عينه.

حاولنا أن نجمع بعض قطرات العيون من الموجودين معنا، ولكن ماذا عساها تفعل القطرة؟ ولكني تشبثتُ بالأمل، وحاولت أن أخفي قلقي وتوجسي، وكنت أقْطُرُ له باستمرار، وأنتظر الأيام على أحرَّ من الجمر، إلام سيؤول الأمر.

وضع ضمادا على عينه لعدة أيام، كنت أتحاشى أن أنظر إلى عينه، ولا أريد أن أصطدم بالحقيقة، وأُعلِّلُ نفسي بالأمل، إلى أن التأم الجرح وآن الأوان لنزع الضماد.. نَزَعنا الضماد ورفع رأسه وفتح عينيه.. كان هادئا جدا.. واثقا مطمئنا لقضاء الله.. صلبا متماسكا.. كان المهجع في سكون تام، والجميع يراقب في صمت وكأن على رؤوسهم الطير.. ينتظرون النتيجة الحزينة... كانت عينه بيضاء تماما... أطرقتُ رأسي طويلا إلى الأرض والقهرُ يأكلُ ضلوعي وانهمرت دموعي غزيرة في صمت.

أحتسب أجره عند الله.. عن أبي هريرة، رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يقول الله عز وجل: «من أذهبتُ حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرضَ له ثوابا دون الجنة».

في إحدى المرات وصلتّنا بعضُ الحاجيات (ثياب وطعام) من أهلي عن طريق زيارة لسجين صديق معنا.

سررتُ بالأمر، وأحسستُ أن باب الفرج أطل علينا أخيرا، فقلت لحسام «لعلَّ هذه البداية وربما يستطيع أبي الوصول إلى المسؤولين ويوصيهم بنقلنا من هذا الجحيم.. أي المهجع الذي نحن فيه إلى مهجع آخر، حيث المعاملة أفضل»... أطرق قليلا ثم قال بأسلوب لبق مهذب وباختصار شديد، وكأنه يُنكِر عليَّ قولي، وطريقةَ تفكيري في النجاة بطريقة فردية: «ومَن لهؤلاء؟».. أحسست بالخجل.. لم أستطع الإجابة.. كلمتان قالهما كانتا أبلغَ من مئات الصفحات من المواعظ.

كان مع الحاجيات التي وصلتّنا كمية قليلة من الحليب المجفف (بودرة)، وكانت إصابة حسام حديثة، وكان من المناسب أن أخصَّه بشيء من الغذاء كونه مريضا، وهذا الحليب بالأصل من ملكيتنا الخاصة، فهيأت له كوبا ووضعتُهُ أمامهُ بهدوء، وجلسنا أفراد القصعة إلى الطعام (وكنا ثمانية).. لم يتكلم أو يعلِّق.. أمسك كوب الحليب وصبَّه فوق الطبق المشترك في الوسط.. لم أنطق بأية كلمة.. كان رداً عملياً بدون كلام!

كان محبوباً من رفاقه وإخوانه، مرِحاً، يُدخل البسمة إلى قلوب الحاضرين بنكتة لطيفة رقيقة، بارعاً في تقليد الأصوات، ذكياً في تعليقاته، كثيرَ الذكر والاستغفار.

مرة جلسنا –أفراد المجموعة – إلى الطعام، وكان دور حسام في الاستحمام، فتأخر.. تناولنا الطعام إلا فتىً كان معنا لم يأكل، سألتُهُ «لماذا

لم تأكل يا فلان؟».. أجاب «أنتظر حسام.. لا آكل حتى يأتي»... فعجبتُ من حبه لحسام وقلتُ في نفسي والله لقد سبقني ذلك الفتى، وفعل ما لم يخطر على بالي فعله!

هذه سيرة إخوتي وأصحابي في الأسْر، أما سيرة الوحش الذي حكم سوريا ثلاثين سنة ورسّخ نظاما بوليسيا إرهابيا لايزال مستمرا إلى يومنا هذا فيعرفها الجميع ويعيشون جرائمها مع الوحش الابن.

وتستمر العواصف الشديدة تهز كياني.. عواصف الظلم، والبعد، والألم... فأشعر أن بركانا يثور في صدري... وأستحثُّ انتقام الله والعباد...

عاصفاتٌ غاضباتُ ... في ضلوعي لاهباتُ
تَنْشُدُ الثأرَ لجرحي ... عن كُماةٍ باحثاتُ
فاشحذي الأسيافَ كفِّي ... واجمحي يا عاديات
غضبةٌ ضجَّتْ برأسي ... ولثأري جنَّ فأسي
وانتقامٌ صارخٌ يم ... لأ ُإحساسي ونفسي
يا صديقي لا تلُمْني ... لم تلمْ لو ذقتَ بأسي
كم حقوقٍ ضيَّعوها ... كم دماءٍ أهدروها
كم يتامى ذابَ قلبي ... عن ذويها أبعدوها
كم ورودٍ كيف تنسى ... في الصحارى أحرقوها
كم قبورٍ شابَ رأسي ... بالضحايا أملؤوها
كم جِنانٍ من بلادي ... دون حربٍ سلموها
كم من التاريخ ِصُحْفٍ ... بالمخازي سوَّدوها

شـــهــــداءَ الــلـــه أنـتــمْ | عـن فــؤادي مـا ابـتـعـدتُـمْ
غـرسُـكُـم مــــازالَ يُـسقـى | مــن دمــائــي لـو عـلـمـتـم
ولــكــم عــهـــدٌ بــأنَّــا | ســائــرونَ حــيــثُ سِرتُـم
نــحــن حـــراسُ الـثـغـورِ | نــحــن آفـــاقُ الــنــســورِ
نــحــن بـــركـــانٌ تَـلَـظَّـى | يـصـطـلـي نـحــرَ الـكـفـورِ
مُــنــتــهــانــا يــنــتــهــي إم | ا لــنــصــر أوٍ لــحــورِ

مجزرة حماة

في شباط ١٩٨٢ وبعد أن اعتدنا إلى حد ما على نمط الحياة والأحداث وتعامل الشرطة، لمسنا فجأة تغيرا في هذا النمط، فشراسة الشرطة زادت حدةً، مع اشتداد طريقة الضرب والتعذيب والوحشية، وازدياد الشتائم المرتبطة بالعمالة والخيانة وعداوة الوطن، إضافة إلى ذلك ازدياد عدد الوافدين إلى سجن تدمر بشكل ملحوظ.. توقعنا أن شيئا مهماً قد حدث في البلد.

بعد ذلك بدأت المهاجع تضيق بالوافدين الجدد، ولما امتلأت جميع المهاجع في السجن إلى درجة الاختناق شرعت الإدارة الحكيمة في بناء مهاجع جديدة وسط الساحات لتتسع لهذه الأعداد الغفيرة، ثم اضطروا إلى ضم قسم من المسجونين الجدد إلينا، فزدنا ازدحاما فوق ازدحامنا.

كان معظم القادمين من مدينة حماة، وكانوا بالآلاف، وأخيرا عرفنا منهم النبأ.. وأن الذي حدث إنما كان ثورة شعبية في مدينة حماة وقام جيش الأسد بسحقها بآلته القمعية العسكرية.

ورد ذكر مجزرة حماة في موسوعة الويكيبيديا، وأنقل موجزا عنها:

هي أوسع حملة عسكرية شنها النظام السوري ضد الإخوان المسلمين في حينه. بدأت المجزرة في ٢ شباط عام ١٩٨٢ م واستمرت ٢٧ يوماً. حيث قام النظام السوري بتطويق مدينة حماة وقصفها بالمدفعية ومن ثَمَّ اجتياحها عسكرياً، وارتكاب مجزرة مروعة كان ضحيتها عشرات الآلاف من المدنيين من أهالي المدينة، وهُدِّمت أحياء بكاملها على رؤوس أصحابها، كما هُدم ٨٨ مسجداً وثلاث كنائس، فيما هاجر عشرات الآلاف من سكّان المدينة هرباً من القتل والذّبح والتنكيل.

خلال تلك الفترة كانت حماة عرضة لعملية عسكرية واسعة النطاق شاركت فيها قوات من الجيش والوحدات الخاصة وسرايا الدفاع والاستخبارات العسكرية ووحدات من المخابرات العامة. وقاد تلك الحملة العقيد رفعت الأسد، ووضعت تحت إمرته قوة تضم ١٢ ألف عسكري مدربين تدريباً خاصاً على حرب المدن.

اختلف عدد ضحايا المجزرة باختلاف المصادر فقالت اللجنة السورية لحقوق الإنسان أن عدد القتلى بين ٣٠ و٤٠ ألف، غالبيتهم العظمى من المدنيين، قضى معظمهم رمياً بالرصاص بشكل جماعي، وتم دفنهم في

مقابر جماعية.. ووفقاً لتوماس فريدمان فإن رفعت الأسد يتباهى بأنه قتل ٣٨ ألفاً في حماة.

هذا بالإضافة إلى السجناء السياسيين الذين أودعوا في السجون العسكرية عشرات السنين، وإنزال عقوبة الإعدام بكل مواطن ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين، وكذلك آلاف المفقودين.

المحكمة

والأصح أن تسمى المهزلة...

بعد أحداث حماة بفترة بسيطة، وفي صباح ١٧ نيسان ١٩٨٢ حضر الزبانية وبدؤوا يقرؤون أسماءَ كثيرة، حتى بلغوا حوالي ستين اسماً، كان جُلُّهم ممن معي في مهجعي، وكنت أنا وأخي في جملة هذه الأسماء.. كانت قراءة الاسم عادة مثيرة للقلق والخروج من المهجع لأي سبب مصدرا للخوف.. خرجنا من المهجع بوضعية السجين المعروفة في تدمر، وهي الرأس إلى الأسفل، والنظر حيث موضع القدم، والظهر منحنٍ أقرب إلى الركوع، وكلٌّ يُمسك بخاصرتَيّ الذي قبله في طابور..

اقتادونا إلى ساحة قريبة من إدارة السجن، وأجلسونا على الأرض في وضعية مشابهة للسابق، وبدأوا يقرؤون أسماءنا بشكل فردي، فيهبُّ صاحب الاسم واقفا، ويأتي الشرطة فيقودونه بالركل والصفع إلى غرفة في الداخل، ويغيب برهة من الزمن، وأحيانا نسمع صراخاً وأصوات الجلد والسياط، ثم يأتي دور التالي.

جاء دوري.. أدخلوني إلى غرفة مكتب، وقفتُ في منتصف الغرفة، حيث كان رجل يجلس إلى طاولة مهترئة (القاضي العسكري) وبجواره رجل آخر يدوِّنُ ما يملي عليه الأول... بدأ بالسؤال فورا دون أن يُعرِّفني بأنه قاضٍ وأن هذه محاكمة!

قال- هل أنت فلان؟

- نعم.

فالتفت إلى معاونه وعلَّق: «كان أبوه مديرا عاما للموانئ السورية، وكان يتهجَّم ويُجرِّحُ عناصر الأمن»...

هكذا كانت محاكمتي وتهمتي: معاداة أبي للنظام البعثي، وكانوا حاقدين عليه بسبب استقامته ورفضه للرشاوى، واصطدامه بكبار المتنفذين في الدولة ومنهم جميل أسد ورئيس فرع المخابرات العسكرية في اللاذقية، وإعلان انتمائه الإسلامي جهارا، وللأسف كان من أبناء طائفتنا وملتنا من الذين ناصبوه العداء الكثيرون، وسأذكر لاحقا قصة جمال صوفي مع أبي كمثال.

ثم أردف قائلا: ما العمليات التي قمتَ بها؟

فأجبتُهُ متفاجئا بالسؤال: لم أعمل شيئا.. فأتبعه فورا بسؤال آخر: من دعاك إلى التنظيم؟

في مثل هذا الموقف من المستحيل أن تقولَ أني غير منظم أو مظلوم، فحاشا لهم أن تتهمهم بالظلم، والويل لمن يدعي البراءة، فهم لم يُحضِروا الناس إلى السجن جزافا..!

فكرتُ في نفسي أن أي إنكار أو محاولة تغيير في إفادتي سوف تجلُبُ لي وجع الرأس والجسم، وتفتح علي أبواب التحقيق من جديد، ولن أستفيد شيئا، لأن الأحكام مقررةٌ سلفا، فقلتُ في نفسي سوف أختصر الطريق وأطابقُ بين أقوالي السابقة في التحقيق وأقوالي الحالية، وأكتفي شر هذا اللقاء.. وتبين لي فيما بعد أن ذلك كان خطأً مني، وضعفي في التحقيق والمحكمة كاد أن

يوصلني إلى الإعدام، وكان هذا من جملة استهتارنا بعدونا...

المهم أن ذلك الرجل، سألني بضعة أسئلة، لاأجرؤ فيها على الدفاع والنكران، ثم التفتَ إلى معاونه في سخرية قائلا: « يا حرام، انظر، شباب في عمر الورود، أليس من الخسارة إعدامُهم».

لم أكترث كثيرا لكلامه، وظننتُه نوعا من الحرب النفسية، وكان كلُّ همِّي أن أعود إلى مهجعي سالما.. واستغرقَت مقابلتي حوالي خمس دقائق، وتبين لنا في مابعد أنها محاكمة عسكرية، وكان قاضيها ذلك المجرم – لارحمه الله- «سليمان الخطيب».

انتهت محاكمتنا جميعا (الستين شخصا) في حوالي أربع أو خمس ساعات.. نعم في خمس ساعات يحاكم ستون شخصا، أي بمعدل خمس دقائق للشخص الواحد، ويحكم على نصفهم بالإعدام، وعلى ربعهم بالسجن المؤبد! وعلى آخرين قليلين بالبراءة.. وهؤلاء «البراءة» يعودون معنا يكملون سجنهم!

وكذلك كانت محاكمة أخي حسام، واتّهمه القاضي بالتنظيم المسلّح، والتفتَ إلى الكاتب وقال: «اعدمه».

يقول أبي عن علاقته مع جمال صوفي:

هو من أبناء اللاذقية من الدورة الأولى للكلية العسكرية في عهد الاستقلال، كنتُ معاوناً له، وكان ذا اتجاه بعثي وقد دخلتُ معه في جدل عدة مرات بسبب عدائي لحزب البعث، وكاد يرميني إلى المهالك عدة مرات.

لما كان حافظ أسد برتبة ملازم حصل شجار في القرداحة، وكان جمال صوفي قائداً للمنطقة الساحلية فأمر بتوقيف حافظ وأرسله إلى دمشق مخفوراً.

كان جمال من الموالين للوحدة ولعبد الناصر، وعُين وزيراً للتموين في الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة.

بعد أن صار حافظ رئيساً للبلاد، أمر بسجن جمال وتعذيبه وإذلاله، وهكذا انقلب الزمان وألقى حافظ القبض على جمال وسجنه لمدة أربع سنوات مع التعذيب.

عند خروجه من السجن لم اكن أرغب أن أساله عن ظروف السجن كي لا أذكره بتلك الأيام، لكنه بادرني من تلقاء نفسه وحدثني عن تلك الأيام بالتفصيل، بدءا من الزنزانة المنفردة إلى الضرب والتعذيب.. فالزنزانة كانت بطول ١٨٠ سم وعرض ٨٠ سم ليس فيها مرحاض ولا ماء، وصحن الطعام كان يركل إليه بالأقدام، وكانوا يسمعونه أشرطة مسجلة لأناس يعذبون وأصوات إطلاق رصاص وأنباء تُعْلمهُ بموت أولاده وزوجته.

استدعاه في أحد المرات اللواء ناجي جميل (ضابط أنيطت به مسؤوليات أمنية لفترة طويلة إلى أن رمي به في حاوية النفايات بعد انتهاء دوره) وكان علي دوبا موجودا وحوالي خمسة عشر ضابطا آخرين لمناقشته في بعض الآراء السياسية، وقال لي جمال أنه شعر بنفسه كأنه حيوان استقدم أمامهم ليتفرجوا عليه.

استدعاه حافظ بعد خروجه من السجن لمقابلته في اللاذقية وأمضى معه أربع ساعات من الحوار، بعدها منح ابنَ جمال بعثة دراسيّة خارج البلاد على نفقة الدولة، في إشارة غير مباشرة من حافظ أنه رب الأرباب وعنده الجنة وعنده النار، يعذب أو يرحم.

حفظ في السجن أجزاءاً من القرآن الكريم، وبعد إطلاق سراحه قام بأداء مناسك الحج، وفي إحدى زياراتي له قال لي: (إن ما يجمعنا اليوم هو الأخوَّة في الدين، كنتُ أقول عنك أنك عنيد، واليوم أقول الحق، لقد كنتَ أنت على صواب).

في أواسط التسعينيات توفي، سامحه الله وغفر له وأسكنه الجنة.

تدمر الجامعة

بعد أيام من وصولنا تدمر، وبعد أن تعافت معظم جراحنا، وعرفنا أنه استقر بنا المقام ولأمد غير معروف، بدأنا نُنظِّم حياتنا، ونوزع المهمات... فكان هناك من وظيفتُهُ توزيعُ وتحديد أماكن النوم بواسطة الخيط، وكانت حصة الواحد تعادل شبرا واحدا من الأرض عرضا وبمقدار طوله طولاً مع بعض التداخل بالرؤوس والأقدام، وكذلك توزيع الطعام، فكانت كل مجموعة تضم ثمانية أشخاص، واسمها «القصعة» كما هو التعبير في القطعات العسكرية، وكان يتولى رئيس المهجع ترتيبنا للخروج إلى التفقد في أرتال وصفوف، وهناك من ينظم الدخول إلى التواليت والاستحمام والغسيل، وما إلى ذلك من حياتنا اليومية.

وما إن تنتهي لقاءاتنا البغيضة مع الجلادين، حتى ينقلب المهجع إلى خلية نحل، ويبدأ الدرس والتدريس، وتتشكل حلقات العلوم الشرعية والعلمية، فكل واحد إما معلم أو متعلم.. فمِن حفظ القرآن والحديث، إلى علوم التجويد وأحكام الفقه والعقيدة، إلى قواعد اللغة العربية والإعراب، حتى أعربْنا معظم القرآن، مرورا باللغة الإنكليزية والدروس الطبية، إلى

تعلم الخط والتخطيط وحفظ الشعر ونظمه، وانتهاءاً بمباريات الشطرنج (كنا نصنعه من العجين).. إضافة إلى المسرحيات الترفيهية.

أما الورشات، فمنها صنع الخيطان والشِباك (من أكياس النايلون)، وصنع الملاعق والسكاكين وصنارات الصوف (من الجاطات والأوعية البلاستيكية المكسورة)، وغزل الصوف، إذ كنا ننقُضُ الكنزات المهترئة ثم نصلح الخيطان ونعيد غزلها من جديد.. كذلك حفر الحيطان (بواسطة قصاصة الأظافر) وتركيب علاقات في الحائط من الخيوط والبلاستيك حتى نعلق أكياسنا على الجدران نظرا لضيق الأمكنة.

أما أنا فكان من جملة أعمالي قلع الأسنان.. إذ كان الألم يشتد بصاحبه حتى يضرب رأسه بالحائط في جنون، ويَقبلُ بأي حل ممكن للتخلص من ألمه.. ومع أن ذلك ليس عملي، وليس لي سوابق تجربة في قلع الأسنان، إلا أني وجدتُ نفسي مضطرا تحت الأمر الواقع، لأن أقوم بهذا العمل، فكنتُ أجدل خيطا متينا وأربط طرفه على الضرس المطلوب قلعه، وأربط الطرف الآخر بملعقة خشب فتصبح كالمقبض، ويساعدني اثنان أو ثلاثة في شد الحبل وتثبيت الضحية.. ونبدأ الشدّ.. ويا ميسِّر.. وفي كثير من المرات كان الضرس يطير في الهواء.

استطاع معظمنا بفضل الله حفظَ كتاب الله، وكنا نقرأ القرآن مثنى مثنى، أي كل اثنين معا على الأغلب، حتى لا نلفت أنظار المتلصِّصين علينا من الطاقات... واحدٌ يقرأ والثاني ينصت!

كان الذين يحفظون سوراً من القرآن قبل دخولهم السجن المصادر

لتحفيظ القرآن، فمثلا أنا كنت أحفظ سورة مريم وطه والنمل، فقمت بتحفيظها لبعض الإخوة الذين قاموا بدورهم بنقلها إلى غيرهم، وكان أخي حسام يحفظ سورة الأنعام، وهكذا حتى استطعنا جمع القرآن الكريم كلِّه، ومعظمنا حفظ القرآن في سنتين أو ثلاثة على الأكثر، وفي كثير من الأحيان كان بعضنا يبدأ بالفاتحة عند صلاة الصبح ويُنهي الختمة بسورة الناس عند المغرب.

وكان معنا أبو حسن قطان الذي يحفظ السيرة النبوية كاملة عن ظهر قلب، فحفظناها منه.. وكذلك كان معنا أساتذة وطلاب الشريعة الذين نقلوا لنا الأربعين النووية وكثيرا من الأحاديث الشريفة وعلوم الفقه.

كانت معظم أوقاتنا مليئة، فمثلا كان يأتيني من يطلب حفظ سورة، فأعتذر منه وأعيِّنُ له موعدا بعد أسبوع!

كما تناقلنا الكثير من الأشعار والأناشيد الإسلامية، مثل «أخي أنت حر وراء السدود» لسيد قطب، وروائع هاشم الرفاعي والمعلقات الشعرية.

هاشم الرفاعي

باعتبار أن حالَ المسلمين واحدٌ في كل البلاد العربية، تحضُرُني هنا هذه الأبيات التي قالها الشاعر المصري الفذ هاشم الرفاعي، وقد مات مقتولاً (وليس إعداما) وهو في العشرينات من عمره، وله عدة قصائد، قرأتُها قبل وقوعي في محنتي، وكان لها بالغُ الأثر في نفسي.. وبتقدير النقاد الشعريين لو قُدِّرتْ الحياة لهذا الرجل لكان من أعظم شعراء العصر الحديث، وهذه الأبيات من قصيدة «أم تهدهد ابنها»:

هو مشهدٌ من قصة حمراء في أرضٍ خضيبةْ
كُتبتْ وقائعُهُ على جُدُرٍ مُضَرَّجة رهيبةْ
قد شادها الطغيانُ أكفاناً لعزتنا السليبةْ
مشتِ الكتيبةُ تنشرُ الأهوالَ في إثرِ الكتيبة
والناسُ في صمتٍ وقد عقدتْ لسانَهُمُ المصيبةْ

أما قصيدته الشهيرة، «رسالة في ليلة التنفيذ»... فقد كنتُ في سفر بين اللاذقية ودمشق، فبدأت بقراءتها عند انطلاق الباص من اللاذقية، ومن شدة تأثري وإعجابي بها قرأتها عدة مرات، وما وصلتُ دمشق إلا وكنت قد حفظتُها، ومازلتُ أذكرُ حين قرأتُها على مسامع أبي -رحمه الله- كم تأثر بها أيضاً، وفاضت الدموع من عينيه... ونقلتُها فيما بعد لإخواني في تدمر.

في السجن عاودتني الذكريات وأحسست أني أعيش تفاصيلَ هذه القصيدة وأحداثَها، وأنها تحكي حالي وحال كلِّ مؤمنٍ أوذيَ في سبيل الله... وكان هذا البيت يهزني من أعماقي وأشعر أنه اختصر محنتي كلها في بيت واحد:

دمعُ السجينِ هناك في أغلالِهِ ... ودمُ الشهيد هنا سيلتقيان

فأنا السجين في أغلاله... ودم الشهيد هو دم حسام...

وبعد خوضي بحور الشعر ومحبتي لتلك القصيدة وجدت نفسي أخاطب أبي بنفس القلب واللسان.. وأرسل إليه رسالتي هذه بعد مضي اثني عشر عاما في السجن:

الـتـرسُ والـبـتَّـارُ يستبقـان والقفلُ والمفتاح يعتلجانِ
عـامـان ِ يـا أبـتـاهُ زادا عشـرة في حمـأةِ التنور في البركان
في القبرِ في التابوت في ظلماتهِ في وطأةِ الكابوسِ في الهذيان
في غارِ وحشٍ هائجٍ متضور في بطن حوتٍ ليس كالحيتان
لجريمةٍ أني تبعتُ محمداً عشرٌ مضت في السجن ثم اثنانِ
أبـتـاه فاصبـر إن أتـاك بـأنهُ طعنتْ فؤادي حربةُ الشيطان
أبتـاه لا تـأسـفْ علـيَّ ولا تقل ضاع الفتى في زحمةِ الثيران
ودعِ التحسرَ والقنوطَ ولاتَهِنْ أبـداً، ولا تـركَنْ إلـى الأحـزان
أنت الذي علمتني معنى الهدى وحملْتَني في مركب الإيمان
وهمستَ في أذني بنيَّ تبصَّرَ نَّ ولاتكنْ في موكبِ العميان
ولدي: ولا تخدعْك كثرتُهم ولا تستوحِشَنَّ لقلة الفرسان
فلمَ التعجبُ يا أبي إن نُمتَحَن أو نصطدم بالمُرعِدِ الغضبان
مـا الـمـالُ والأهـلـونَ إلا فتنة والـلـه ذو عـدلٍ وذو إحسـان
والسجنُ والإيذاءُ سُلَّمُ مؤمن يَـرقـى بـه لـمـراتـب الـرضـوان
والخسرُ خسرُ النفس في سَقَطاتِها والنصرُ نصر الروح لا الأبدان
أبـتـاه إن بعـنـا الـحـيـاة بـجنـةٍ ربـح الـمـبـيـعُ بـحـجـة الـقـرآن

المسؤول الصحي

بعد نحو ثلاث سنوات أمر الشرطة بتعيين مسؤول صحي في كل مهجع! وقع اختيار السجناء عليّ، وبذلك حِزتُ على هذا الترفيع! وهكذا صار في كل مهجع شخص مكلف بمتابعة المرضى والتكلم باسمهم أمام طبيب

السجن، وليس بالضرورة أن يكون طبيبا، فقد يكون صيدليا أو مخبريا وربما بيطريا، أو حتى مجرد عنده بعض المعلومات الطبية الأولية.

كانت مهمتي أن أخرج من المهجع راكضا بأقصى ما لدي من سرعة عندما يفتح الشرطي باب المهجع ويصرخ «مسؤول صحي»، لأقابل طبيب السجن، فيسألني ماذا يلزمك من الأدوية الضرورية بأسلوب تذمّري وكأنه يقول لي إياك أن تطلب شيئا. كنت أطلب الأدوية المهمة فقط، ومع ذلك فكثيرا ما كنت ألقى نصيبي عند الطبيب أو أثناء عودتي لأني تماديتُ وأكثرتُ من الطلب.

بعد يومين يعود الشرطة يحملون الأدوية النفيسة ليوزعوها علينا.

في أحد الأيام خرجت أستلم دوائي وأنا أحمل صحنا.. رمى الشرطي الأدوية على الأرض.. لمَمْتُها ووضعتُها في الصحن، ثم مشى معي الشرطي إلى المهجع وهو يسبني ويتوعدني لأني أكثرتُ من جلب الدواء (صحن لمائتي شخص: كثير)، وفتح الباب لأدخل، واستغلّ وضعي أثناء دخولي وأنا ممسك بصحن الدواء، فباغتني برفسة ملء عزمه بمقدمةِ بوطهِ العسكري على بطني.

وقعت على باب المهجع، وشهقت من ألمي شهقة مُصيِّتة سمعها كل من كان في المهجع، وأحسستُ أن نفسي انقطع تماما وعضلات صدري قد تشنجت كلها، ووقعت مصفرا شاحبا ولم أستطع استعادة تنفسي إلا بعد برهة من الوقت، وبقيت شهور أعاني من الألم مكان تلك الركلة.

حمدي لطفي:

كان حمدي لطفي من مدينة حماة مريض قلب، وساءت حالته.. فحَصَّتُهُ ووجدتُ عنده علامات استرخاء قلب، قلت لناصر قطريب (رئيس المهجع)

إنه بحاجة إلى مستشفى ووضعه خطير ويجب التبليغ عنه.

عند التفقد رفع ناصر يده.. وكان شجاعا مقداما.. وقال بصوت عال:

-» حضرة الرقيب: أريد أن أكلمك».

- «تعال هنا».. «ماذا؟».

-»عندي مريض حالته خطرة وبحاجة إلى مستشفى».

وكان كأنما ارتكب ناصر إحدى الكبائر!

«مستشفى يا...؟».

وانهال عليه الزبانية ضربا ولطما وشتما، ودخل المهجع وعلى عينه كدمة وأذية بليغة كادت تودي بها.

لم يعد بوسعنا شيء إلا أن نشاهد حمدي وهو يموت ببطء.. بعد يومين استفقنا صباحا فوجدناه قد فارق الحياة.

حضر الجلادون صباحا كالعادة.. صاح ناصر: «حضرة الرقيب عندي واحد ميت».. دخل الرقيب.. نظر إلى حمدي ثم خرج.

بعد نصف ساعة، حضر الشرطة مرة ثانية، قالوا أخرجوه في بطانية.. أخرجناه.. أخذوه ومضوا.

بعد ساعة حضر الشرطة مرة أخرى.. فتحوا الباب ونادَوا «مسؤول صحي».

هَرَعْتُ إلى الباب ووقفتُ عنده، وقلتُ «حاضر».. وإذا بطبيب السجن قد حضر، فدار هذا الحوار:

- مسؤول صحي... ما قصة هذا الميت؟

- إنه مريض قلب سيدي.
- ولماذا مات؟
- لقصور في القلب سيدي.
- وهل كنتَ تعطيه الدواء بانتظام؟
- طبعا سيدي.
- قال مهددا: "لتكونّ قصّرتَ عليه بالدوا ولاه".
- أعوذ بالله سيدي، كنتم ترسلون كل الدواء الذي نطلبه كاملا، وكنتُ أعطيه إياه بانتظام، ولكن مرضه مستفحل، ولو كان المريض في أحسن مشافي أمريكا لمات.. نعم.. مرضُهُ ليس له علاج بتاتا، إنه ميؤوس منه سيدي.

بدَت على لهجته علامات الرضا وقال: «كويس، تمام».. أغلَقوا الباب وانصرفوا، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون، ولولا أن الله ألهمني حسنَ الجواب لألصقوا بي تهمة قتلِهِ، وربما ألحقوني به!.. وقد صدق بشار (صدق وهو كذوب) حين قال: اكذب.. اكذب.. حتى يصدقك الناس.

الأمراض المعدية:

عندما كنا نخرج إلى الحلاقة على أيدي البلدية، كان الحلاقون الذين بأيديهم أمواس الحلاقة ثلاثة أو أربعة، فكانت هذه الأمواس تمر على ذقون المئات وبين عدة مهاجع، فندخل المهجع والدم يسيل من وجوهنا، وكان ذلك سببا في انتشار مرض التهاب الكبد الذي ينتقل بالدم الملوث، وفي المهاجع التي حدث فيها المرض كانت الإصابات شبه شاملة لجميع أفراد المهجع بنسبة تزيد عن ٩٠٪، ولم ينجُ إلا بضعة أفراد، وأدى إلى وفاة

بعضهم بسبب قصور الكبد وظهور اليرقان والاصفرار (وأحيانا الاخضرار)، وآخرون خرجوا من السجن يكملون مسيرة حياتهم وهم يحملون كبدا مريضا وتشمعا مزمنا.

أمرٌ آخر زاد من انتشار الوباء.. استعمال سيرينغات الحقن العضلية المتكرر بين المساجين.. فكانت تصِلُني كميات محدودة جدا أو لاتصلني، فاضطر لاستخدام السيرينغ الواحد لعشرات المرات ولعدة مرضى.

في إحدى المرات طلبتُ من طبيب السجن سيرينغات، فقال لي لماذا تكثر من طلب السيريغات؟

- ليس لدي كمية كافية منها سيدي.
- استعمل نفس السيرينغ.
- إني أستعمله أكثر من عشر مرات.
- بل تستعمله ألف مرة.. "انقلع".

أصبنا بحالات جرب مخيفة، فلا حمام ولادواء مع ازدحام كعلب السردين، فكانت تنتشر فينا الدمامل والقشور الجربية إلى حدود غريبة ومخيفة غير معروفة في الطب، وأنا شخصيا قد عانيت منه الكثير وتطور معي إلى لوحات مستديرة بمساحة الليرة على سواعدي، ومع الوقت كانت تنفصل القشرة عن الجلد، ويظهر تحتها مستنقع من القيح، مرض السل أيضا فتك بالكثيرين.

أذكر مرة انتشرت الحمى التيفية بيننا، وأصابتني العدوى، وصارت حرارتي كالجمر مع صداع شديد وألم بالبطن.. كان الدواء شحيحا جدا والمصابون كثُرٌ، فطلبت من أحد إخواني إعطائي إبرة "كلورامفينيكول"،

ولم يكن يسمح الحالُ بأكثر من إبرة واحدة لكل مريض، علما أن مرض الحمى التيفية، كما هو معلوم في قواعد الطب يحتاج إلى علاج لمدة عشرة أيام على الأقل، فأعطاني الحقنة.. حقنة واحدة فقط.. وشُفيتُ بإذن الله (وإذا مرضت فهو يشفين).

الحاجة أم الاختراع:

جاءني أحد الإخوة وقد انتشرت في جسمه آفات جلدية حمراء دائرية مقوسة، سبَّبت له الحكة الشديدة، ولما عاينتُها توقعتُ أنها من أنواع الفطور.

كان لايزال في ذاكرتي، أن اليود مادة قاتلة للفطور، وأتيحت بين يدي بضعة حبوب من دواء قديم كان يستعمل كمضاد للإسهالات يدخل في تركيبه اليود، واسمه Enterovioform فأخذتُ حبة وطحنتُها جيدا.

كنا نجمع أثَرَ السمن والزيت الذي يعلق على حواف أوعية الطعام (الطشت)، فوضعتُ ملعقة من هذا السمن في علبة صغيرة، ورششتُ الحبة المسحوقة معها ومزجتُهما، وأعطيتها للأخ، واستعملها، وكانت النتائج فورية بحمد الله، ودعا لي كثيرا، رحمه الله (استشهد)، وهكذا عالجتُ الفطور الجلدية بحبوب الإسهال.

فيصل غانم

مدير السجن.. اسمه يدخل الرعب على سجناء تدمر.. لم نكن نراه أونسمع صوته مطلقا، فمقامه أعلى من ذلك بكثير!

في حركة مفاجئة وغير مسبوقة، جمعونا في أحد الأيام في ساحة السجن، وكنا عدة مهاجع، وجلسنا نرتقب، وامتلأت الأسطح بعناصر

الشرطة المسلحين في جلبة غير معهودة.

كانت زيارة تفقدية من مدير السجن "فيصل غانم" يتفقدُ فيها أحوال الرعية!

طلع علينا السيد فيصل بقامته البهية وبدلته العسكرية، وألقى علينا محاضرة مختصرة في الوطنية، وبأننا نحن السجناء أمانة في رقبته، ثم سألنا هل نريد شيئا، أو فيما إذا كانت لدينا شكاوى!

في البداية لم يتجرأ أحد على الكلام، ولما أصرَّ على أن يسمع مطالبنا قام بعض السجناء فوقفوا وتكلموا، فمنهم من اشتكى من سوء الطعام، ومنهم من طالب بالدواء، ومنهم من طالب بحريته لأن حُكمَه "براءة"، ومنهم من طالب بفتح الزيارات...

وعَدَنا خيرا ومضى وانفضَّت المسرحية.

في اليوم التالي حضر الذئاب وصاحوا علينا: أين الذي يريد تحسين الطعام؟ وأين الذي يريد الدواء؟ وأين الذي يريد الزيارة؟ وأين.. وأين.. فأخرجوهم من بيننا وأعطَوهم درسا في الأدب وحسنِ الطلب!

بعد فترة استجاب فيصل لطلب الزيارت، وبدأ أهالينا يصِلون إلى السجن فعلا.. لم يكن حُباً بالمساجين ولكن حبا بجيبه الذي امتلأ من الثمن الباهظ للحصول على الزيارة، والذي يُدفع إلى أمه في قريته (الهنادي في ريف اللاذقية) قبل الزيارة.

كان يُذاع الاسم، فيخرج صاحب الزيارة للقاء أهله ويلتقي بهم بعد فراق ثلاثِ سنوات لمدة لاتزيد عن ربع أو نصف ساعة، ويكون اللقاء طبعا بحضور عناصر السجن وفي مكتب المساعد تحت المراقبة المشددة، ويعود

السجين بعد ذلك حاملا ما تبقى من أغراض الزيارة التي أحضرها أهله إليه، بعد أن ينهب الشرطة والبلدية مايحلو لهم منها.. أما المساعد فيترفع عن هذه الأغـراض، ويقاسم السجين حصته من المال الذي يستلمه من أهله، وفي أغلب الأحيان ينال السجين نصيبه من تهنئة الشرطة له بمناسبة الزيارة وهو في عودته إلى مهجعه، حتى أن معظمنا لم يعد يتمنى الزيارة.

أبو مخلص عطوة –رحمه الله- كان من الذين أتيحت له مقابلة أهله في زيارة قبل استشهاده، وعندما عرضوا عليه إعطائه نقودا رفضها وقال لهم لاحاجة لي بالمال، لعلمه بحاجة عياله إلى النقود بعد اعتقاله وفقد معيلهم، وعلمه أيضا بأن هذا المال سوف يسرق منه، وكانت النتيجة أن لقي ضربا مبرحا بعد الزيارة، وعاد إلى المهجع والكدمات تملأ جسمه.

الصاعقة

في صباح ذلك اليوم، ٢٤ كانون ثاتي ١٩٨٣، وحوالي السابعة صباحا، كان دوري في عمل السخرة، حيث كانت أعدادنا كبيرة، وبالتالي كنا نوزع الخدمات، مثل إدخال الطعام إلى المهجع، وتوزيع الطعام في الصحون، والجلي، وتنظيف الأرض، وتنظيم الدور في الدخول إلى دورة المياه الوحيدة لمائة شخص أو أكثر، وسخرة صب الماء، فيصب أحدنا الماء للآخر بالإبريق وبحذر لعدم الهدر، حتى يتمكن الآخرون من تغسيل أيديهم أو الوضوء...

نعم.. كان دوري صباحا في سخرة صب المياه لإخوتي في المهجع، وإذ بالشيطان يقف على باب المهجع، ويفتح النافذة الحديدية الصغيرة، ويخاطب رئيس المهجع: اسمع هذه الأسماء، ومن كان موجودا عندك

فليجب ب "حاضر"، وبدأ يقرأ الأسماء... إلى أن قال حسام الدين..

تسمرت مكاني، وقع الكأس من يدي، وشعرت أن صاعقة نزلت على رأسي وأن قلبي انخلع من مكانه لهول المفاجأة.. خرجتُ من حجرة الحمام حيث كنت أصب الماء، وبحثت عن حسام في الناس، كان يقرأ القرآن مع صديقه في الجامعة سابقا "موفق".

كانت الأسماء كثيرة وعدد الذين صدرت أسماؤهم من مهجعنا فقط أحد عشر شخصا، بينهم ثلاثة أطباء هم "محمد نينو" من إدلب، و"محمد عاكف رستم" من اللاذقية، وأخي حسام.

لم ندر لماذا أذيعت الأسماء، وفيمَ يخرجون!

قال الرقيب من الخارج بصوت آثم حاقد: أحضرهم أمام باب المهجع وليكونوا جاهزين للخروج.

انتابنا القلق.. كان يومَ برد قارس من أيام منتصف الشتاء في كانون الثاني.

لم يدر هؤلاء الأحد عشر أين ذاهبون! فلبس كل واحد جميع ثيابه تحسبا لرحلة طويلة، لأننا كنا لانملك من الثياب إلا اليسير، فمثلا أنا كنت ألبس كنزتي الشتوية طيلة فصل الشتاء لمدة خمسة عشر عاما حتى ترققت وأصبحت كالورقة من الاهتراء، لأنني كنت لاأملك سوى كنزتين استعملتهما طيلة مدة سجني، وكنا نخيط اللحاف بشكل الكيس حتى يكون مفرشا وغطاءً لقلة الحال.

تقدمت من أخي وأعطيته "جاكيتي" الوحيد، وقلت له البسه فأبى، فأصرَّيتُ عليه، فلبسه، قلت له عسى أن يكون الأمر خيرا إن شاء الله.. لم أذكر أنه علق بشيء، ربما كان يتمتم ببعض الأذكار.. كان صائما، تسحرت

معه في تلك الليلة لقمتين من الفروج المسلوق مع قطعة خبز لاتكفي طفلا صغيرا، طبعا ونحن مستلقون في وضعية النوم، فالسحور والصلاة في قانون السجن جريمة قد تكلف صاحبها حياته.. وكان بفضل الله أول من حفظ كتاب الله غيباً، فخرج صائما حافظا.

اصطفّ رتل الأحد عشر سجينا قرب باب المهجع ينتظرون قضاء الله.. لم يطل الانتظار، حضر حشد كبير من الشرطة، فتحوا الباب، وكالعادة كما علَّمونا استدرنا جميعا ووجوهنا إلى الحائط في جمود كامل كالأخشاب، وقال الرقيب "لبرّه".

خرج الرتل وأغلق الباب الحديدي، أسرع أحد الإخوة يسترق النظر من ثقوب صغيرة بالباب، قال "إنهم يقيدون أيديهم خلف ظهورهم"، فكان هذا نذير شؤم.. ثم عاد الرقيب وصاح "رئيس المهجع هات بشاكير- أي مناشف- "وفتح الباب وأخذ المناشف، فعاد الأخ المراقب وقال "إنهم يعصبون عيونهم بالمناشف"، فكان هذا نذير شؤم آخر.. ثم مضوا بهم..

جلسنا جميعا وقد عقدت الدهشة ألسنَتا.. منا من راح يلهج بالدعاء ومنا من يقرأ القرآن، ومنا المترقب المذهول في وجل... طال الانتظار، وبدأ التهامس، فمِن قائلٍ ربما محاكمة، وآخر يقول تحقيق، وآخر يقول يأخذونهم إلى دمشق.. وآخر صامت.. وكثرت التحليلات والتوقعات، ولكن كان هناك هاجسٌ مرعبٌ في نفس كل واحد منا، لم يجرؤ أحد بالبوح به.

كان يوما ثقيلا جدا.. الثواني فيه بطيئة كالساعات.. أصبح الوقت ظهرا ثم عصرا، ثم أذَّن المغرب، ولاخبرٌ ولا أثر، نظرتُ إلى السماء من طاقة

السقف المشبوكة بقضبان الفولاذ الثخينة.. لا أنساها.. كانت ملبدةً بالغيوم رماديةً مكفهرةً قاتمةً حزينة.. أحسستُ أن السماء تبكي.. نعم لا أنسى هذا الشعور.. وأحسست أنها محتقنةٌ بقطراتِ المطر وتحبسُ دموعَها.. أحسستُ أرواح إخواني ترفرف فوقنا.

وقد قرأت فيما بعد أن بكاء السماء حق، فقد ورد في الأثر:

عن سُدي: لما قتل الحسين بن علي رضوان الله عليهما بكت عليه السماء، وبكاؤها حُمرتُها.

كما ورد في القرآن الكريم أن السماء والأرض لم تبكيا على فرعون وقومه عند هلاكهم.. وبالتالي فإنها تبكي على المؤمنين:

(كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوماً آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) الدخان ٢٩.

الجميع أدرك الحقيقة، ولم أعد أذكر من الذي كسر جدار الصمت في ذلك اليوم الكئيب، ولكني أذكر حين قال أحدهم «الله يرحمهم».. لم أصدق ما أسمع! هل أنا في حلم رهيب أو كابوس؟ هل مات أخي حقا؟ صباحا تسحرنا معا! أوهكذا تزهق الأرواح بكل بساطة وفي صمت؟ أوهكذا يغتالون الإنسان بكل برودة دم وأعصاب؟ أوهكذا ترتكب الجريمة باسم القانون؟ في لحظة أو دقائق يسرقون آمال الآباء والأمهات وتعبَ السنوات! لم أكن أصدق ماجرى..

أقبل «أبو عبد الله» - وكان محبوبا وله شأن واحترام في المهجع - لعندي وأمسك بكلتا يدي وقال «الله يصبرك على مصيبتك» وبعد قليل

أُعلن لصلاة الجنازة على الغائب، وأنا في ذهول تام.

صلينا صلاة الغائب على أحد عشر أخا كانوا بيننا قبل ساعات، أحدهم شقيقي.

قال «موفق» كنت أقرأ القرآن مع حسام، وكان آخر ما قرأه هذه الآيات من سورة آل عمران: «قل اللهمَ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب».. سبحان الله.. فهل كان هذا الدعاء من حسام موجها إلى ربه قبيل اللقاء...

حان وقت المغرب وجلسنا لنأكل طعام الإفطار، قال أصدقائي: «أفطِر يا أبا هشام».. وضعتُ لقمة في فمي وحاولتُ أن أبلعها، لم أستطع.. أحسست أنها علقت في صدري وكأنها جثمت على قلبي تكاد تخنقه.. كان حلقي مغلقا ومعدتي متشنجة، ولم تنزل اللقمة، وانتهى إفطاري.

أخونا عبد الوهاب رسم تفاصيل هذا اليوم بريشته الدقيقة:

أحباءَ قلبي: هدَّني الحزنُ بعدَكمْ	**فصدري ثقيلٌ، والفجيعة تقتلُ**
تهبُّ رياحُ الموت صفراءَ فجأة	**ومن غير إنذار: تَحُلُّ النوازلُ**
ونادى نذيرُ الشر أسماءَ إخوتي	**فألقيت سمعي، والفؤادُ يُسجِّلُ**
وأصبح وجهي للجدار ملاصقا	**وجسمي بتمثال أصم مُبَدَّلُ**
أقول لأحبابي عساها محاكماً	**لأدفنَ إحساسا عميقا يُشَغَّلُ**
شبابٌ رأوا جناتِ عدنٍ في الرؤى	**يقينا وضوح الشمس تبدو الدلائلُ**

وجوهٌ من الفردوس نضَّرها الهدى ... ورَوحٌ وريحانٌ وعطرٌ قرنفلُ

صباحٌ عصيبٌ أفسد الشرُّ صفوَه ... كئيبٌ، بأثقال الهموم مُحَمَّلُ

يُقالُ: جِثيًّا في الزوايا جميعُكُم ... ويصطفُّ رتلٌ والوداعُ مُعطَّلُ

ويخرجُ أحبابي وتنهالُ دمعتي ... بكاءا مريرا والعيون نواهل

ونادَوا: "بشاكيرا" لعصب عيونِهم ... ولكنَّ نورَ الله أقوى وأمثَلُ

وهذي قيودُ الظلم شُدَّتْ بمِعصم ... لتقييد عملاق يُزَفُّ ويُقبِلُ

بقلبٍ تحدّى سطوة الظلم كلَّها ... فراح من الأعماق حمدا يُهَلِّلُ

ويمضي إلى الأعوادِ نسرا مُحلِّقا ... يُدوِّي بتكبير عنيف يزلزلُ:

شهيدٌ إلى الفردوس، ذلك مطمحي ... وحسبي لدين الله أحيا وأقتَلُ

قوافل الشهداء

كانت حادثة استشهاد أخي ومجموعتِه التجربة الأولى لنا من حلقات الإعدام وذلك بعد سنتين من دخولنا سجن تدمر، وكانت قبل ذلك متوقفة لعدة أشهر لأسباب لا نعرفها، ولذلك فقد أُخِذَ شهداؤنا على حين غرة ولم يتسنَ لنا وداعهم ولم يصلوا صلاة الشهادة والدعاء قبل اللقاء.

بعد ذلك توالت الحلقات بسرعة، فكانت تحضر لجنة السفاحين ثلاثة أيام في الأسبوع: كل سبت وإثنين وأربعاء، في الموعد المحدد صباحا، بين السابعة والثامنة، وبدون انقطاع لمدة ثلاث أو أربع سنوات، ويتكرر معها هذا المشهد، جولة على المهاجع، وقراءة أسماء.. ولكن كان يتسنى للإخوة الخارجين إلى الشهادة بعض الدقائق للوضوء وصلاة الشهادة والدعاء ووداع إخوانهم.

عشنا هذه السنوات في حالة ارتقاب مستمرة، فكنا لا ندري الدور القادم

لمن؟ ومن سيكون في القائمة القادمة، فكلنا مرشحون بقوة للإعدام في سجن هُدِرت فيه دماؤنا جميعا.. وأنا شخصيا بقيتُ سنة كاملة أنتظر دوري ثلاثة أيام من كل أسبوع منذ الصباح الباكر، فأنوي الصيام وأصلي ركعتين لله صلاة مودع، وألبَسُ الرث من ثيابي، على احتمال أن هذه الصلاة قد تكون آخرَ عهدي من الدنيا... ولكن الله لم يكتب لي الشهادة، ربما لم أكن قد وصلتُ إلى ذلك المستوى، فالشهادة هي اختيارٌ من الله لعباده، «وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلمَ الله الذين آمنوا منكم، ويتخذَ منكم شهداء».. فالله هو الذي يتخذ الشهداء.

والمواقف كانت كثيرة، فقد ودعتُ العشرات وهم يخرجون أمام عيني إلى حبل المشنقة، وكانوا كلُّهم هادئين، تعلو شفاهَهم بسمةٌ رقيقة.

أذكر حين كنت أودع «محمد صوان» وكان طالبَ طب من خان شيخون، وكان صديقا لأخي حسام، فعانقني والبسمةُ في وجهه.. فقلت له «يا محمد أبلغ أخي حسام مني السلام»، فأومأ برأسه وتبسم وقال «نعم»..

وأذكر كذلك حسين رفاعي طالب طب من خان شيخون، ومنذر سراج طبيب أسنان من دير الزور، ومحمد سهل صالح مخبري من اللاذقية.. والقائمة طويلة.. ونسيت أسماء الكثيرين.. وأعتقد أن عدد الذين خرجوا إلى ساحات الإعدام على مدى أربع سنوات بلغوا عشرة آلاف إنسان على أقل تقدير، إذ كانت الدفعة تتراوح وسطيا بين ٥٠ و١٠٠ ومرةً وصلوا إلى مائتين، بمعدل ثلاثة أيام في الأسبوع..

كان أحدهم يسارع إلى لبس أسوأ وأبلى ماعنده من ثياب، ليؤثر إخوتَه

من بعده بالبقية مما بقي من رمَقٍ من ملابسه، فالحيُّ أولى من الميت.

كان الجلادون يدورون السجن ابتداءاً من الساحة الاولى وانتهاءاً بالسابعة، وهم يقرؤون الأسماء على المهاجع وذلك يستغرق حوالي ربع ساعة، ثم يعودون بعد انتهاء الجولة، فيجمعونهم من مهاجعهم ويقودونهم إلى ساحة الإعدام، ويُجلِسونهم على الأرض، مقيدي الأيدي خلف ظهورهم، معصوبي الأعين، وتبدأ عملية التنفيذ تباعا، فوجٌ وراء فوج، كلٌّ ثمانية معا.. وقد يتجاوز عددهم المائة، ويستغرق الأمر ساعات.. فيا ترى كيف يكون حالُ الذي ينتظر دوره في الأخير؟

كانت المشنقة بشكل الرافعة مزدوجة الجانبين، أي مثل كفتي الميزان، يُخِفضونها من جهة فترتفع من الجهة الأخرى، يضعون الحبل في عنق السجين وهو واقف على الأرض، ثم يخفضون الطرف المقابل له إلى الأسفل، فيرتفع من رقبته إلى الأعلى ويعاني من سكرات الموت حتى يموتَ خنقا وتسكنَ حركته، بعد ذلك يقطعون الحبال، فيهوي جسد الشهيد ويرتطم بالأرض، ثم يحضرون الوجبة التالية.. رحمهم الله جميعا وتقبلهم مع الشهداء.

بعد انتهاء المجزرة يأتي احتفال لجنة الضباط القتلة الذين يغادرون الساحة وهم يشبكون أيديهم ببعضها ويدبكون ويرقصون ويغنون، على إيقاع حشرجات الموتى وغرغرة الأرواح! كيف يُصَنَّفُ هؤلاء أنهم بشر؟

وأخيرا تدخل الشاحنات العسكرية، وكان الذين في المهاجع المجاورة لساحة الإعدام يسمعون صوت ارتطام الجثث بالأرض عندما يقطعون حبل المشنقة فتهوي إلى الأرض، وصوت ارتطامهم أيضا وهم يرمونهم أكواما في

الشاحنة العسكرية، ليخرجوا بهم ويدفنوهم في مقابر جماعية في الصحراء.

أما «أبو عبد الله» ذاك الذي كان أول من عزاني بأخي فقد كانت له حكاية اخرى:

في الحقيقة، بعد استشهاد الدفعة الأولى والتي كان فيها أخي، وبصدمة المفاجأة أصابنا شيء كثيرٌ من الإحباط والحزن، وانهيارٌ في المعنويات، فقد كنا نعيش في شيء من الأمل وترقّبٍ لفرج قريب بين ليلة وأخرى، أو ننتظر معجزة ما، وما كنا ندري أننا نواجه عدوا حاقدا إلى هذه الدرجة، أو أنها سوف تطول بنا السنوات، فجاءت هذه الضربة وسحقت آمالنا، وأصبحنا نحسّ أننا ننتظر الموت فقط، وهو محدق بنا، ونعيش على لاشيء، يودع بعضُنا بعضا..

هنا جاء دور أبي عبد الله، وهو من خان شيخون، فراح يذكرنا بما أعده الله للصابرين، وقصص الصحابة، وقَدَرِ الله المُحكَمِ في هذا الكون بأسلوب لطيف محبب.. واستطاع بمدد وتوفيق من الله، أن يشحذ الهمم والعزائم، وينهضَ بنا من هاوية اليأس والمرارة، لنحلِّقَ في عالم الملكوت الأعلى، ونشعرَ أن الملائكة تعانقُنا وتطيِّبُ خواطرَنا، وتستقبلُ شهداءَنا بالحفاوة والتكريم، ورحنا نرنو إلى الصحابة والنبيين، ونستذكرُ أنما هذه الحياةُ الدنيا متاعُ الغرور، وأن مردَّنا جميعا، سواءاً طال أم قَصُرَ إلى الحاكم الذي يفصل بين عباده ويقضي بينهم بالحق.

واستطعنا بدفقات الإيمان وكلمات الله أن ننتصرَ على أحزاننا وآلامنا، ونستمدَّ طاقة عجيبة من الصبر ثَبَّتَتْنا لسنوات طويلة... وعاد اليقين قويا

راسخا في قلوبنا.

كان أبو عبد الله أحد الذين أذيعت أسماؤهم للإعدام ذات صباح، هو وتسعة من إخوتنا في نفس المهجع، معظمهم من خان شيخون... تدافع الناس لوداعهم، وكالعادة صلوا صلاة الشهادة ودعَوا الله أن يغفر لهم ويتقبلهم شهداء، وجلسوا ينتظرون التنفيذ!

ولكن هذه المرة لم يحضرِ الجلادون!.. ومضى الوقت والساعات.. ثم انقضى النهار وحلَّ الليل.. كان هذا الحدث لغزا جديدا علينا، لم نعرف جوابه! لماذا انصرف الجلادون، ولماذا لم يخرج أبو عبد الله ورفاقُه إلى الإعدام؟ هل انقضى الأمر أم أنهم سيعودون غدا أو بعد غد؟ أسئلة كثيرة كانت تدور في أذهان الجميع، ولا أحد يملك الجواب!

نام أبو عبد الله وإخوته، ولست أدري إذا كان النوم قد أدرك مقلتَهم؟ المهم أنه مضى ذلك اليوم ولم يحدث شيء.

ترقبنا اليوم الثاني فلم يحدث شيء أيضا، وكذلك الثالث ثم الرابع والخامس، حتى كدنا ننسى الموضوع!

كان أبو عبد الله يمشي بيننا، وقد حجز تذكرة السفر، ولكنه لايدري متى الرحيل، ولكنه كان يتوقع أنه سفرٌ قريب على الأغلب!

كان يقول لأصحابه الثمانية دعونا نبقى معا، فإننا ذاهبون معا في مركب واحد، ويضحك ويقول لنا: «إذا أردتم أن تنظروا إلى أحد من أهل البرزخ فانظروا إلينا، فنحن أهل البرزخ قدم في الدنيا وقدم في الآخرة».

«أبو مخلص عطوة» أيضا من خان شيخون كان من مجموعة أبي عبد

الله التي تنتظر موعدها مع الآخرة بين عشية وضحاها، وكان مدرسا، ولديه إحساسٌ مرهف ومَلَكَةٌ شعرية، وألَّف عدة قصائد، أنقل إليكم هذه الأبيات الحزينة، التي يتكلم فيها بلسان الولد الذي يسأل أمَّه عن أبيه الذي غاب.. متى يعود؟:

أماه يكفيك البكاء على أبي	فوسادتي ضجَّت لقلب مُتعَب
إني أحِسُّ النار تكوي وجنتي	من قبلتَيكِ في الضحى والمغرب
أين الذي أكتافُهُ أرجوحةٌ	أحبو عليها كلاعب في ملعب
قد طال وقت غيابِه عن ناظري	ومسامعي في لهفة وترقُّب
رُدِّي عليَّ فإن قلبي مُتعَبٌ	يهواك يا أمي كما يهوى أبي

في إحدى الليالي جلسنا والوجوم يخيم علينا .. أراد أحد الإخوة المنشدين أن يخترق جدار الصمت، فاختار قصيدة لأبي مخلص كان أبو مخلص قد صاغها سابقا لإخواننا الشهداء، وراح ينشدها بصوت عذب رقيق:

يا جنان الخُلدِ تيهي عجبا	واستعدِّي للقاء الشهدا
إخوتي أرواحُهُم في مهجعي	كورودٍ عانقتْ قطرَ الندى
لم يُبَالوا بعدوٍّ ظالم	نصبَ الأعوادَ في ساح الفدى
إنما أعوادُهُمْ أرجوحَتي	أمتطيها حين أبغي السُؤددا

ألقيت نظري على أبي مخلص وهو يستمع إلى قصيدته التي كأنما هو ألفها لهذه الساعة، وهو يخاطب الجنة أن تتهيأ للقاء الشهداء! كان مطرقا ساهما والدموع تترقرق صامتة في عينيه.

بعد أسبوع حدث ما كنا ننتظره، جاء الجلادون وقرأوا الأسماء ولكن هذه

المرة كانت نافذة.

والله لا أنسى وجه أبي عبد الله، وكأني أراه أمامي الآن: ضحكة عريضة، نور يضيء وجهه، حالة هدوء واطمئنان لا تصدَّق.. وانكب أفراد المهجع عليه يقبلونه ويعانقونه.. ودّعتُ أبا مخلص فقد كنتُ صديقا مقربا منه.. ودّعْنا التسعة وودعونا، وخرجوا إلى لقاء ربهم.

المواقف كثيرة وكثيرة..

محمد خير.. من حماة.. واحدٌ من الذين خرجوا أمامي.. صلى ركعتي الشهادة، ثم وقف أمامنا وقال: "والله إني أشم رائحة الجنة".. نعم لقد أقسمَ بالله أنه يشم رائحة الجنة.

أحدهم بعدما خرج إلى قبضة الشرطة.. سأله الشرطي وكان كل أفراد المهجع يسمعون: "هل تعلم إلى أين أنت ذاهب؟".. فأجابه الأخ بصوت راسخ ثابت: "نعم أعلم.. أنا ذاهبٌ إلى الجنة".

وأبو عبدو الحموي (أبو دان)، تأخر عليه الجلادون عدة ساعات.. وهو في الانتظار بعدما تُليَ اسمُهُ، وربما شُغِلوا بأمر ما، ولما طال الانتظار جلس أصدقاؤه يسامرونه، بل وقدموا له الفاكهة، فأكل منها وهو يمازحهم وكأنه ذاهب إلى نزهة..

سعيد: ذلك الشهيد الحي، تُلي اسمه أيضا في نفس الأوقات الموافِقة لتنفيذ الإعدامات، صلى الشهادة، وجلس ينتظر، ومضت الساعات ثم الأيام والرجل يرتقب قدوم القتلة في أي حين، ولكن الله شاء له أن لا يعود إليه الزبانية، وأن يمنَّ عليه بعد ذلك بالفرج والخروج من السجن.. ثم تزوج

وأنجب الأولاد، وقد كلمتُهُ منذ فترة قريبة، وحدثني أنه بقي متأهبا في ثياب الإعدام لعدة أشهر، وكان يشد بنطاله برباط قوي حول خصره حتى لاتنكشف عورته بعد الإعدام، لدرجة أن الرباط حزَّ في بطنه لفترة طويلة.

مخلص قنوت صديقي في الجامعة والذي أطلقوا عليه النار في مشفى المواساة، كان يتوقع لحظة الشهادة، ولكنه أبى أن يسلم عنقَهُ إلى حبل المشنقة، وعندما أذيع اسمه خرج من المهجع وهاجم الشرطة رغم عرجه.. وقاومهم، ولكنهم تكالبوا عليه، وأخرج أحدهم الموسى من جيبه وذبحه أمام باب المهجع، وتركوه يتخبط في دمه، ثم ساقوه إلى حبل المشنقة ميتا.

يوسف عبيد.. شاب لطيف منخفض الصوت، هادئ، من عين الفيجة في دمشق، كان يعرف حكمه بالإعدام لأنه من التنظيم المسلح.. روى لنا أنه في إحدى مهماته كان ماضيا لاغتيال رجل قذر من المخابرات، وعندما سنحت الفرصة، ظهر الرجل وهو يحمل طفلا صغيرا بين يديه... لم يستطع يوسف تنفيذ المهمة، لأنه خشي أن يصيب الطفل.. نعم فشلت الخطة بسبب إنسانية هذا الرجل المؤمن والذي لقي ربه دون أن يقتل نفسا بريئة.

واليوم يُقتل الأطفال بالآلاف.. ذلك تاريخنا وهذا تاريخهم!

بسام بريك.. أما بسام، ذلك المجاهد البطل، فقد خرج إلى لقاء ربه ضاحكاً مسروراً، قال: "لاتحزنوا يا إخوتي فإني مستوفٍ حقي منهم سلفا".. (إذ أنه كان من الذين جاهدوا وحملوا السلاح وفعل بهم الأفاعيل) ثم وقف ينشد هذه الأبيات التي كان قد ألفها سابقا (فقد كان شاعرا أيضا، وله

قصائد أخرى):

طال اشتياقي للحبيب محمد ... يا نفسُ طيبي فاللقا قد حانا
هذي الملائكُ والصحابةُ حولَه ... ورجالُ صدقٍ بايعوا مروانا
حفوا بساطَ الموتِ في شوقٍ لنا ... والحورُ تنشد خلفهم ألحانا
والروضُ زلفى والكؤوسُ مليئة ... والعينُ تجري ريحُها ريحانا
فاثبُت فؤادي لا تبالِ بميتةٍ ... يجزيك ربي نضرة وجنانا

تأملوا: رجل خارج إلى الإعدام يقف ليلقي الشعر.. ألقى هذه الأبيات الخمسة، لأن الوقت لم يكن ليسمح له أن يكمل القصيدة، فالجلادون بالانتظار، وهأنذا أسوق لكم تتمة هذه القصيدة الرائعة التي يجب أن تكتب بماء الذهب، والمفعمة بقوة الإيمان والتّحدي والاستعلاء على الطواغيت:

إن الجنان على بحور مصائب ... من كان يبغي فليكن ربانا
ما فاز فيها من أناخ سلاحَه ... بجوار دنيا خائفا وجبانا
لغةُ الرصاص إذا أردت فصاحة ... للكفر أصدقُ حجةً وبيانا
فاصدح رصاصَك في القلوب ... محدثا تهوِ الجبابرُ سُجَّدا رُهبانا
يا حافظ الأنجاس لن أخشى الردى ... فاسحق عظامي وليكن ما كانا
وابنِ المشانق من دمشق لسجننا ... لن تقضي إلا ما قضى مولانا
لما سلكتُ الدربَ أعلم أنني ... طلقتُ دنيا تابعا فرسانا
سأظل أمضي ما حييتُ مجاهدا ... بدمي وروحي مسلما إخوانا
ويظل رأسي للثريا شامخا ... وشِراك نعلي فوقكم تيجانا

تجربتي مع الشعر

بعد استشهاد أخي حسام صارت تدور في نفسي خواطرُ كثيرة وتزدحم في رأسي الأفكار، وتتفجر في نفسي الأحاسيسُ.. ما بين المرارة بفقد الأخ وبين مرارة الواقع الذي نعيشه، فكنت أشعر أن مصيبتي مصيبتان، وكنتُ أرى آمالي تتحطم أمام عينيَّ ومستقبلي ينهار، بل حياتي كلُّها معلقة بخيط رقيق بين السماء والأرض، والموت يُطبقُ عليَّ بين فكيه، ويكاد أن ينقض علي، فلا أجد ملجأً إلا بالعودة إلى حبال الإيمان واليقين، فأعود وأتمسك بها لأستطيع الثبات في هذه العاصفة الهوجاء..

كنت أتذكَّرُ أمي وأحاول أن أتخيل على أي حالٍ باتت بعد خسارة ولَدَيها، وماذا عسايَ أقولُ لها عن حسام إذا لقِيتُها يوما!

بعد فترة بدأت أتمتم بأبيات بسيطة، وسالت الخواطر على لساني تحكي حالي وتروي ما كنت أفكر فيه، ولم أكن بعدُ أعرف الشعرَ ولابحورَه، فتدفقَتْ مني هذه الكلمات بعفوية وحملَتْ حرارة المشاعر التي تنتابني.. تنطق بلسان الشهيد الذي يُصبِّرُ أمَه ويمسحُ دمعتها:

أماه فاهنئي.. أماه فاسعدي

في جنة الخلودْ.. في الروض مقعدي

إنَّ ابنَك الشهيدْ.. لم يرضَ أن يحيدْ

شعارُه الوحيدْ.. بالهادي أقتدي

الأرضُ في ذهولْ.. ماذا عسى تقولْ

والطيرُ والعقولْ.. من هول المشهد

في ساحة الإعدامْ.. مازلَّتِ الأقدامْ

وليشهدِ اللئامْ.. درسَ البطولة

درسٌ من الفداءْ.. بالروح والدماء

بكت له السماءْ.. ياأرضُ فاشهدي

بعزة النسورْ.. وجُرأةِ النمورْ

وبسمةِ الثغورْ.. وقلبِ مؤمنِ

تقدمَ الأبطالْ.. كأنهم جبال

وعانقوا الحبالْ.. يا نفسُ فاثبتي

هناك في الفردوسْ.. أكرِمْ به من عرسْ

لبائعٍ للنفسْ.. يا حورُ زغردي

دعاكُمُ المعبودْ.. بأصدق الوعودْ

إفطارُكم ممدودْ.. بصحبة النبي

الزيارة

ثلاث سنوات انقضت في غياهب تدمر، لانعلم عن دنيا الناس شيئا.. وعالمنا محصور بين هذه الجدران الأربعة.. كنت أفكر في والديَّ.. يا ترى هل هما لايزالان على قيد الحياة أم فارقا الدنيا والحسرة تأكل قلبيهما؟

و كما قال أحد الإخوة في هذه المفارقة العجيبة:

أبتاه هل أرثيكَ أم ترثيني؟ هذا لَعمري أعجبُ التخمينِ

في حزيران ١٩٨٤ أذيع اسمي.. خرجت لا أعرف أين وجهتي.. وكانت الزيارة الأولى لي بعد ثلاث سنوات من اعتقالي، أما زيارتي الثانية فكانت بعد عشرة سنوات من زيارتي الأولى!

كان كل همِّي منصبا حول التهرب من الحديث عن أخي حسام، فلاشك في أن أهلي سوف يسألونني عنه، ولا أعرف ماذا أجيب.. فإن قلتُ أنه استشهد فربما ينهارون وأقع في ورطة، وإن قلت أنه حي سأسبب لهم زيادة في المعاناة ومحاولات البحث عنه!

أروي تفاصيل الزيارة كما كتبها أبي رحمه الله:

زيارة أسامة في تدمر في ٦ حزيران ١٩٨٤

كان أهل المساجين يبذلون الغالي والرخيص للفوز بزيارة أسيرهم، وكثيراً ما كان الأهل يقعون فريسة المحتالين، فيذهبُ المالُ الذي باعتِ الأمهات والزوجات مُصاغَهُن من أجل رؤية سجينهم هباء، وكأن البلاء بسجن أحبتهم غيرُ كافٍ حتى يُبتَلَوا بالنصابين الذين هم الوحوش بعينها.

وعَدَنا ابنُ عم فيصل (مدير السجن) باصطحابي وأم أسامة بسيارته إلى تدمر، وفعلا نفذ وعده وأوصلنا إلى بيت رئيس سجن تدمر.

كنا سابقا قد طلبنا زيارة ولدَينا فأتانا الجواب بعد فترة من الوقت بأن أسامة فقط موجود، على عكس ما كنا نتصور أننا سنجد حسام في تدمر وأسامة في مكان آخر!

استقبلَنا رئيسُ السجن وزوجتُه، ولما سألناه عن حسام، أجابنا أنه لم يدخل تدمر. وعندما أكّدتُ له أنه كان في تدمر بدليل أن جاراً لي قد التقى ابني حسام عندما كان هذا الجار في زيارة صهره في تدمر.. عاد وأكّدَ (كاذبا) أنه لم يدخل تدمر مما جعلني في حيرة.

استقدم فيصل سيارة تابعة له فأخذَتْنا عبر شوارع تدمر إلى ثكنة السجن.

اجتزنا أسوار الحراسة إلى أن وصلنا غرفة متواضعة وقلوبنا تخفق بشدةٍ للقاء فلذة الكبد، وتمنيتُ في نفسي لو كان ابني في أيدي اليهود، إذن لكان ذلك أرحم.

بعد قليل دخل الحارس ومعه أسامة، أسامة الوردة التي رعيناها بقلوبنا.. أسامة ليس أسامة.. جسم نحيل، وجه شاحب، حليق شعر الرأس، طويل شعر الذقن كأنه لم يحلق ذقنه منذ أيام، يرتدي «بيجامة» لايعرف لها لون، ينتعل شحاطة من الصنف الحقير.

عندما تقابلت نظراتُنا، وكنتُ وأمُهُ قد هيأنا أنفسنا لكبت مشاعرنا، بدا أنه كان حريصاً على أن يطمئنَنا، فبدأ بعبارة: «اطَّمَّنوا اطَّمَّنوا».. جرت المقابلة بحضور ضابطِ صف قليلِ الكلام يبدي شيئاً من اللطف، وكان الحذر بادياً على وجه أسامة، وعندما سألناه فيما إذا كان قد اجتمع بأخيه حسام نفى ذلك طبعاً، حيث لم يكن جوابه صحيحاً ولا يتجرأ أن يذكر شيئاً عنه، ولم نكن نعرف أنه لاقى ربه شهيداً على أيدي جلادي السفاح الأكبر.. ظننَّا أنه في سجن صيدنايا المميز عن تدمر. استغرق اللقاء حوالي نصف الساعة أعطيناه بعض النقود وطلب ساعة فأعطيته ساعتي.

عدنا إلى بيت رئيس السجن وجرى حوار بيني وبينه حول حرمان الأهل من الزيارة وقسوة هذا الحرمان خاصة للأم، فقال فيصل يجب تحمُّل ذلك في سبيل الوطن.. هنا قاطعته بانفعال: ولكن ما هو الوطن؟ الوطن ليس التربة التي نمشي عليها فقط، بل هو الشعب الذي يعيش في الوطن.. هو ابني وأخي وجاري..البلاء عام (ولايزال الكلام لأبي)

لا تخلو عائلة في سورية من سجين قريب، كأخ أو ابن أو زوج أو أب، فالمهم أن يكون الشعب السوري مقيداً برهائن غالية فلا يستطيع حتى الاحتجاج.

في البناية التي كنا نقطنها كان هناك ضحايا غيرُنا، فالطابق الأرضي كان يسكنه معلم مدرسة (أبو مصطفى).

اعتقل أبو مصطفى وترك نصف دزينة من الأطفال بدون معيل، وكانت ابنته الكبرى عروساً حديثةً ودُوهِمَ منزلها، وجرى تبادل إطلاق النار وسقط ضابط من المخابرات قتيلا، واختلفت الأقوال عن العروس وأخت زوجها التي كانت في المنزل، فلم يُعرف هل قُتِلَتا أم اعتُقلتا، وقيل أن العروس هي التي قتلت الضابط، الخلاصة أنه لم يعد يسمع عن البنتين أي خبر.

كان ابن خالة أبي مصطفى يسكن مجاوراً للشقة، وكان يعمل في إصلاح البرادات، وكنت أشعر بأن من واجبي أن أمد يد المساعدة لعائلة أبي مصطفى التي فقدت معيلَها، فاتصلتُ بهذا الشاب وطلبت منه أن يوصل مبلغاً من المال إلى عائلتة، فأبى بأنفة وقال إنه يعمل ويستطيع إعالتهم.

لم يمض وقت طويل حتى اعتقل هذا الشاب، وبعد سنوات طويلة أفرج عنه بسبب مرض عضال ووصل إلى أهله ميتاً وقيل أن جسده كان يحمل آثار التعذيب.

كان الإرهاب والخوف قد وصل حداً أن الناس أصبحوا يخشون التبرع لعائلةٍ سُجن معيلها، لا بل يخشون توصيل مبلغ من المال إليهم، وهذا ما حصل معي عندما أردت أن أوصل معونة شهرية لعائلة في مدينة أخرى، فلم أجد أحدا يتجرأ أن يوصل المال لهم.

مؤمن

بعد ان استقر بنا المقام وصارت الأيام تمشي على وتيرة ثابتة متكررة.. في إحدى الأمسيات، وبعد أن انتهى مشوار اليوم من لقاءات الشرطة، وبدأنا نخلد إلى الليل والهدوء.. سمعنا باب الساحة الحديدي يفتح، ويقبل شرطي ويصيح: «أسامة هشام»..

تجمد الدم في عروقي.. إنه اسمي.. نعم.. ماهذه المفاجأة المسائية؟ ماذا يريدون في هذا الليل؟

صاح رئيس المهجع: حاضر سيدي، إنه عندي هنا.

على الفور فتح الرقيب باب المهجع، ولم يمهلني ولا دقيقة واحدة، وقال « اخرج».

سرتُ معه، لاأدري إلى أين أسير؟ فكل الاحتمالات ممكنة.. وبدأت التساؤلات تدور في ذهني.. نقلٌ إلى دمشق أو فرع التحقيق.. ربما! أو.. زيارة في هذا الوقت المتأخر.. مستبعدة!.. إعدام يا ترى؟ عادة حفلات الإعدام يجرونها صباحا.. ماذا عساه يكون؟؟؟ كان القلق في أوجِهِ.

وصلتُ إلى إدارة السجن وأدخلوني غرفة فارغة، وأجلسوني على الأرض، ورأسي مطرق.

تقدم نحوي أحدهم.. طبعا لم أجرؤ على النظر إليه، ودخل في الموضوع بدون مقدمات:

- ما علاقتك بمؤمن صلاح؟

سؤالٌ أعادني إلى الوراء سنوات... يا إلهي ألم ينتهِ عهد التحقيقات منذ زمن بعيد؟ ها قد عدنا من جديد! وسندخل في هذه الدوامة من جديد.. إنكار وتعذيب وانتزاع اعترافات.. يارب استوينا.. يارب حاجة..

- علاقة طلاب جامعة.

- أقصد علاقتك التنظيمية معه؟

- في الحقيقة كان مؤمن صديقي في الجامعة، وكان متدينا طيبا، ولقاءاتي به كانت عادية ومصادفة، ولا تتعدى حدود المودة.

- يبدو أنك لن تعترف.. وهوى بالكرباج الثقيل غلى ظهري، فأحسست بسيخ من النار يمشي في ظهري..

لمحتُ بأطراف عيني أقدام الشرطة حولي، وكانوا حوالي ثمانية أو عشرة.. لاأستطيع أن أحدد العدد، ولكنهم كانوا كثر.. كنت أرى أحذيتهم العسكرية فقط..كانوا كالذئاب الجائعة التي تتحين الفرصة للانقضاض على فريستها، وينتظرون الإشارة من المحقق حتى يبدؤوا عملهم.. أحسستُ أنها لحظة فصل بين الحياة والموت، فربما أكون بعد دقائق في عداد الموتى...

استجمعت قوتي وشجاعتي وأحسستُ أن فرصتي الوحيدة أن أخاطبه بالمنطق فقلت له: يا سيدي هل تسمح لي بكلمة؟

- نعم؟

- إذا أردتَ الصدقَ والحقيقةَ فسوف أخبرك بها، وإذا أردتَ تعذيبي فسأقول لك ما تشاء.

- صمت برهة، ثم قال: أريد الحقيقة..

- سبحان الله.. لا أدري من أين جاءتني الحُجَّةُ السكينة والهدوء.
- فالحقيقة إذن يا سيدي أنه صديق لي في الجامعة، وزرتُهُ مرة بمناسبة العيد، وردَّ لي زيارتي في العيد التالي، هذا هو كل ما بيني وبينه.
- يعني ما في تنظيم بينكما؟
- أبدا يا سيدي.

اكتفى بهذا القدر من الأسئلة.. يبدو أنه اقتنع.. وقال أعيدوه إلى المهجع.

لم أصدق أن التحقيق انتهى بهذا الشكل السريع واللطيف، وأن يقبل المحقق جوابي بهذه السهولة، وحمدتُ الله أن نجاني في هذا الموقف، وشعرتُ أن دعاء أمي كان يرافقني طيلة الوقت، وكذلك شكرتُ الله أنني لم أضطر إلى لصق تهمة التنظيم بمؤمن، فلو أنهم أثقلوا علي في التعذيب، لاتهمته أنه معي في تنظيم الإخوان، بل هو رئيس التنظيم والقائد المسلح، وأضيف ما يشاؤون، ولربما يلقى حتفه مابين التحقيق والسجن!

حتى في طريق عودتي إلى المهجع، فإن الله سخر لي رقيبا كان مسالما نسبيا، وكنا نعتقد أنه نصراني، فلم يمسسني بسوء، بل كان يدردش معي.. وهكذا انقضت تلك الليلة بسلام، وكان ذلك من أفضال الله علي.

تدمر والعصر الذهبي

جمعونا –المساجين من كل المهاجع– في الساحة الرئيسية في السجن، وجلسنا كل مهجع في ركن، ننتظر الحدث المرتقب الجديد!

أطل علينا "بركات العش"، مدير السجن الجديد، وقال ارفعوا رؤوسكم وانظروا إلينا.. لم نتجرأ في البداية، فهذا أمر لم نعهده منذ دخول السجن..

كرر كلامه.. وبدأت ترتفع الرؤوس واحدا تلو الآخر، ورأينا أفراد الشرطة الذين ولغوا في دمائنا، كيف يحاولون التواري والتخفي من نظراتنا وقد بدا عليهم الغيظ والحرج الشديد.. ثم تكلم عن قوانين السجون، وأنه سيسعى لتأمين حقوقنا، ثم سألَنا عن احتياجاتنا!

كان الدرس السابق مع فيصل غانم لايزال حاضرا في ذاكراتنا، فلم يطلب أحدٌ شيئا!

كرر "بركات" السؤال، ولما لم يردَّ عليه أحد، أشار إلى أحد المساجين وطلب منه الوقوف، وكانت ثيابُه رثة ممزقة، فقال له بغضب: "أنت يا هذا.. ماذا عندك من الثياب، أليست ثيابك هذه بالية؟" فقال: "ماعندي شيء سيدي".. فقال "ولماذا لا تطلب؟" ثم تابع "من أيضا غيرُه يحتاج إلى ثياب؟"

حينها دبت الجرأة في بعض منا، وبدأوا يرفعون أصابعهم، فالتفت إلى الشرطة وقال "سجلوا أعدادهم" وأحضروا لهم ثيابا.. والشرطة تحصي العدد من كل مهجع وتسجل.

ثم سأل ماذا تريدون ايضا؟.. فمنا من طلب إتاحة الزيارات فأجاب أنه سيطلب لنا ذلك، ووقف آخر وقال له: "يا سيدي أنا محكوم براءة، فلماذا أبقى هنا؟" فقال له أنه سينقل أمره إلى الجهات المعنية وليس له علاقة بتنفيذ الأحكام، وبعضهم طالب بالدواء.

كان معي في مهجعي رجل مسنٌّ فوقف وقال: "يا سيدي إن ابني مسجون معي في هذا السجن، ولكنه في مهجع آخر، وأنا رجل مسنّ، فهلا نقلتَه إلى مهجعي كي يعينَني".. فأمر الشرطة أن يتوجهوا إليه ويسجلوا اسم ابنه!

كنا مذهولين وفي ريبة، ماذا جرى؟.. هل يعقل أن هذه المعاملة تحدث في تدمر؟ هل هي مقدمة لإطلاق سراحنا؟ أم أن في الأمر مكيدة كالعادة!

بعد يومين حضر الشرطة وبدأوا يوزعون بدلات السجن الزرقاء على المهاجع، كما مسجل في القائمة.

بعد ذلك فتح باب مهجعنا، وإذ بشابٍ غريب، يبدو واضحا من ثيابه، وحلاقة رأسه، وهزالة جسمه، أنه سجين مثلُنا، وكان هذا الشاب ابن ذلك العجوز، وكان لقاء الوالد بابنه لقاءا ممزوجا بالفرح والأحزان.

كذلك تحسَّنَ الطعام كما وكيفا، وأصبح الضرب بقدر محدود ومراقبا.

اجتماع المسؤولين الصحيين

بعد أيام حضر الرقيب وطلب المسؤولين الصحيين لاجتماع، وكنت أنا الممثل عن مهجعي، وجمعونا في ساحة صغيرة وحضر "بركات العش" مدير السجن، وسألنا عن حاجاتنا الطبية.

أذكر أن أحد زملائي طلب لقاحات للأمرض السارية كالسل والتيفية، فأبدى بركات اهتماما وقال للرقيب اسأل عن إمكانية توفير لقاحات ضد هذه الأمراض، فذلك أفضل من إنفاق الأموال الكثيرة على علاجها!

وصل الدور لعندي، فقال لي "وأنت ما يلزمُك؟".

- يا سيدي لديَّ أعداد كبيرة من الذين يعانون من أوجاع الأسنان، وكثير منهم يحتاج للقلع.

- ومنذ متى لم يحضر طبيب الأسنان إليكم؟

فكرتُ قليلا لثوان، ماذا أجيب، والشرطة واقفون يسمعون ويراقبون، ونحن مستضعفون لانأمن غدرهم، وفي حقيقة الأمر فإننا لم نشاهد طبيب أسنان منذ دخولنا السجن أي منذ ثلاث سنوات، فاجتهدت أن أخففَ من نقمة الشرطة عليَّ وأقللَ الفترة لكي لا يبدو طلبي كشكوى ضد طبيب الأسنان، فأجبتُهُ منذ ثلاثة أشهر، أي أنني اختصرتُ الفترة من ثلاث سنوات إلى ثلاثة أشهر!

- ماذا تقوووول؟ منذ ثلاااااااثة أشهر؟؟؟؟ قالها بانفعال واستغراب شديد.

لم أدرِ استغرابه واستنكاره على الثلاثة أشهر هل هي قليلة أم كثيرة!! وتوقعتُ منه أن يوبخني لأني شططتُ في طلبي!

أحسستُ أني تورطت في الأمر، ولم يعد بإمكاني التراجع، وقلت في نفسي "ياليتني ما حكيت".

تابع "بركات" وقال غاضبا: "إيتوني بطبيب الأسنان".. بعد دقائق جاء طبيب الأسنان مهرولا، وقد خطف الشحوبُ ملامحَ وجهه، ووقف أمام مدير السجن، وقال حاضر سيدي؟

- ألا تسمع يا دكتور ماذا يقول المسؤول الصحي؟ ثلاثة أشهر لم يأتهم طبيب أسنان!

- يا سيدي لا علم لي بذلك، لم يخبرّني أحد أن هناك من يحتاج إلى طبيب أسنان.

- ماذا يا دكتور؟ وتابع بانفعال: ولم لا ترسلُ حمارا من هؤلاء (وأشار إلى الشرطة) يتفقد أحوال المساجين ويسألُهم عن حاجاتهم؟ هذا واجبكم أن

تسألوا السجناء عن طلباتهم.

يرسل حمار! من يقصد يا ترى؟ الشرطي بجلالة قدره حمار؟ وهو الذي يظن نفسه إلها بين المساجين، ويصول ويجول ويقول أنا أحيي وأميت!.. يا ساتر! وصلت الأمور إلى هذه الدرجة.. حمار.. إهانة كبيرة لسيدي الشرطي.. الله يلطف.

انفضّ الاجتماع وقادني شرطي إلى مهجعي وهو يتمتم: "بدّك طبيب أسنان يا كذا.. بتشوف بكره إذا رح خلي لك سن بتمَّك".

دخلتُ المهجع وتجمع أصدقائي حولي، وقصصتُ عليهم ما جرى، والتوبيخ الذي لقيَه طبيب الأسنان والشرطة من مدير السجن، فأصابنا جميعا الوجوم.. وتحسَّبْنا من انتقام الشرطة.

في صباح اليوم التالي أقبل الرقيب، سمعناه يفتح باب الساحة الحديدي، ويعوي صارخا: "مسؤوووول صحي عالباب".

تعوذتُ بالله، ووقفتُ أمام الباب.. انفتح الباب ووقف أمامي الرقيب وقال وهو يكتم غيظه: "أين مرضى الأسنان؟".. فخرج سبعة عشر سجين من عندي يعانون من أسنانهم، وذهبوا إلى عيادة الأسنان وعادوا بعد ساعات، وتم بعون الله علاجهم ولو بشكل بدائي.

هذا الرجل (بركات العش) مع أنه ينتمي إلى الطائفة العلوية، فقد كان رجلا نزيها، إنسانا.. في قلبه شيءٌ من الإنسانية، اكتسب احترامَنا، ولايزال سجناءُ تدمر يذكرونه بخير، ولكن هذه الفترة الذهبية لم تستمر للأسف أكثر من أشهر قليلة، فهكذا تعاملٌ يبدو أنه لم يعجب الجهات العليا!

تجديد البيعة

عام ١٩٨٥ كان موعد تجديد الانتخاب للقائد الخالد، وسرت شائعات قوية بأنه سوف يُصدِر عفوا عاما بهذه المناسبة، وفعلا فقد أحسسنا بالهدوء في تلك الفترة واستبشرنا خيرا، فخفَّت ضراوة تعامل الشرطة مع السجناء.. وأحضروا لنا الحلويات عدة مرات، وكان هذا من عجائب السجن.. وكنا نسمع أفراد الشرطة يتهامسون ويتحدثون عن العفو العام، فشعرنا ببعض التفاؤل، بل إن بعضنا طار من الفرح، وبدأ يخطط لما بعد الفرج.. ولكن سرعان ما انقشعت تلك الغمامة الكاذبة وتبين لنا أنها كانت سرابا خادعاً، ومضى الانتخاب ونجح الرئيس المفدى بنسبة ٩٩,٩٩٪ !

أخرجونا إلى الساحات وأمرونا أن نحتفل، ونهتف للرئيس، وهذا ما كان.. أخذنا نصيح والشرطة يراقبوننا، «بالروح بالدم نفديك يا حافظ».. «بالروح بالدم نفديك أبو سليمان».. وكان المقبور يكني نفسه بأبي سليمان.

في اليوم التالي، مر الرقيب أمام المهجع، وقال اهتفوا للرئيس، ونحن داخل المهجع دون أن نخرج إلى الساحة.

كان معنا في المهجع رجلٌ مسنٌّ اسمه «خالد طربوش» من منطقة الحفة باللاذقية، ويكنى بأبي سليمان، وكان مرحا بنفسية وروح الشباب، فحملناه على أكتافنا، والتففنا حوله، وبدأنا نردد: «أبو سليمان شو بتريد لنساوي؟».. وهو يبتسم ويشير بيده إلى الذبح.

أخونا أبو سليمان هذا أصيب بعد فترة بمرض السل، فكان أبو جميل يمازحُهُ ويقول له: أنت على كنية خالد بن الوليد (أبو سليمان).. فأنت سيف

الله، وأنت مسلول لأنك مصاب بمرض السل.. إذن أنت سيف الله المسلول!

أنقل عن أبي -رحمه الله- لقاء والدتي مع المقبور حافظ في مناسبة تجديد الانتخاب له، والضجة التي أثيرت حول إطلاق سراح الموقوفين والعفو العام:

موكب النساء الحزانى في ٣٠ كانون الثاني من عام ١٩٨٥

اجتمعت حشود من النساء من أهل المساجين من كل أنحاء سورية في دمشق بمناسبة الاستفتاء على تجديد ولاية الطاغية، وتقدمْنَ إلى قصره في مسيرة تهتف بحياته يستعطفْنه لإطلاق سراح الأسرى، واستقبل وفداً منهن - كانت أم أسامة إحداهن- ووعدهن الكاذب خيراً قريباً، وما كان ذلك إلا خدعة لتمرير الاستفتاء.»

سنوات طوالٌ ثقال

وهكذا توالت علينا السِنونَ طوالا ثقالا، ونحن في «غيابت الجب»، لانعرف ماذا ننتظر، ولا لماذا نعيش، ولا ندري ماذا تخبئ الأقدار بعدُ؟ تعصف بنا الشدائدُ ورياحُ المحن، وكلما أطلَّت علينا بارقة أمل نطير معها في أحلام الحرية، ثم لا تلبث أحلامُنا أن تتحطمَ على صخرة الواقع المرير، ونرى حريتَنا أبعدَ من النجوم وأقربَ إلى المستحيل.

عشرُ سنوات لانعلم عن أهالينا خبرا.. لاندري أأحياء هم أم أموات، وعلى أي حال يصبحون ويمسون.

أما حال أبي فهو يحدث عن نفسه:

كنتُ في مهمة في فرنسا، وكان مقر الاجتماعات في ضاحية اسمها

«نيس» على الشاطئ اللازوردي الفرنسي.

في الميكروباص السياحي الذي كان يتلوى على الطريق الساحلية الذهبية، تدفقت مني هذه الأبيات:

غَـزَتْ قلبي بطلعتِها … وحاطتني برقَّتِها
جمالٌ هزَّ أعماقي … فهل أرنو لدعوتها
دعتني للهوى «نيسُ» … وفي عينيها ما يُسكرْ
عروسٌ مثلُ غصنِ البانْ … شراعُ الزورق المبحرْ
يكاد القلب يرتعشُ … أنا والكون مندهشُ
فهل للأنفس الجرحى … لأن تهنا وتنتعشُ
حياتي عذابُ يا كبدي … لكم آهاتي يا ولدي
أأنسى أسمى أحلامي … وأنسى من هم سُندي
أصرّتْ عيني أن تدمعْ … فلا مرأى ولا مسمعْ
لعهدٍ كان كالأحلامْ … دعوتُ الله أن يرجِع
دعوتُ الله في علني … وفي سري وفي حَزَني
ليجمع بعد تفرقةٍ … ويطفي في الجوى شجني
أناجيكم أناديكم … ورب العرش يحميكم
وأنتم يا سنا قلبي … بنفسي ألفُ أفديكم

أسأل الله أن يرحمه ويحسن إليه كما أحسن إليَّ وإلى إخوتي، ويحتسب صبره وبلاءه في صحيفة أعماله.

عشرُ سنوات مضت لانعرف إلا الماءَ الساخن الملتهب في الصيف،

والماءَ المتجلد الذي يقص الأصابع في الشتاء.

عشرةُ شتاءاتٍ لم نعرف فيها دفء المواقد.

عشرُ سنوات نفترش الأرض ببساط رقيق، ونلتحف غطاءً نتشارك عليه، ونسينا شيئا اسمه الكرسي أو الأريكة.

عشرُ سنوات ننام كعلب السردين متلاصقين، للواحد منا عرض عشرة سنتيمترات ينام فيها، وقد أجرى أستاذ رياضيات معنا عملية حسابية بسيطة، وتوصل إلى أن لو كل سكان الأرض ناموا على هذه الطريقة لوسعهم لبنان!

عشرُ سنوات لم نعرف فيها ظلامَ الليل وهدوءَه، فالمصابيح منارة في المهجع على مدار الساعة (للمراقبة)، والحارسُ يتبختر فوقنا بقرقعة حذائه وسلاحه.

عشرُ سنوات من الجوع، ننتظر مجيء الخبز كما ينتظر الطفل العيد، ثم نجتمع لنرى كومة الخبز العسكري الحجري المدور التي وصلتنا وحجمها، لعل يكون نصيب الواحد منا أكثر من نصف رغيف ليوم كامل.. وغداؤنا كلَّ يوم البرغل الممزوج بالحصى، حتى كرهت البرغل، وما زلت أكرهه إلى يومي هذا.

عشرُ سنوات لم يعرف أحدنا كيف صار شكله، ويحاول أن يُعمِلَ مخيلته وهو يتحرى خياله في طبق الشاي الواسع، فلا زجاج ولا مرايا، وكل الذي نعلمه أننا حليقي الرأس (على الصفر والحلاقة كل أسبوع).

عشرُ سنوات لا كتابٌ ولا قلمٌ ولا ورقةٌ ولا مذياعٌ ولا تلفاز.

عشرُ سنوات لا نعلم عن دنيا الأنام شيئا.

عشرُ سنوات نسينا فيها أن هناك جنس آخر اسمه الأنثى!

سمعنا عن إنشاء سجن جديد في صيدنايا، وأنه للسياسيين، وأنه سجن خمسة نجوم، فيه تلفزيون وراديو، وزيارت للأهل، والكلام مسموح، ولقاءات المساجين بين بعضهم متاحة، وطعام مقبول، والأهم أنه لايوجد فيه ضرب وتعذيب، فصار حلمنا أن ننتقل إلى هكذا سجن ترفيهي لايوجد فيه عنصر الرعب.

طالت المحنة واشتدت وطأة السجن علينا، لدرجة أنني صرت أفكر في التخطيط لعملية هجوم جماعي على الشرطة لعل بعضنا ينجو، فإما حياة وإما موت، ولو كلف قتل الكثيرين، فنحن ميتون على جميع الأحوال، ولعل هذه المعاناة تنتهي بالموت أو بغيره، ولكن لم يوافقني على الفكرة أحد.

الأحاسيس المشتعلة وطول المعاناة وحفظ القرآن والعلوم الشرعية والتمكن من اللغة العربية، فجَّرتْ لديّ طاقة الشعر، فصرت أسكب مشاعري وأحاسيسي في قصائد، وكانت هذه إحداها:

تمورُ بخاطري الفِكَرُ ... وصدري كادَ ينفجرُ
فلا الأقلامُ تُسعِفني ... ولا الأشعار تنحدرُ
أراها محنةً ثَقُلَتْ ... وألقتْ كلَّ ما تَزِر
وما ألوانُها مما ... رآه الجن والبشر
رُمينا قعرَ مُظلمةٍ ... فلا حِسٌّ ولا خبر
كأنا في مقابرنا ... بها نُطوى ونندثر
فكم ذا الوجدُ أرَّقني ... وكم أضنانيَ السهر
أناجي الله في حَزَن ... ويسمع همستي القمر
فترثي لي نُجيماتٌ ... ويبكي الطير والحجر

وكم هاجت بنا فتنٌ ... وظِلُّ الموت ينتشر
يُدمدِمُ في معاقلنا ... بإرهابٍ ويزدجر
ويَخطَفُ ثُلَّةً منا ... وباقي القوم ينتظر
ويروي فتكَهُ أثرٌ ... على الجدران محتفِر
جراحُ الجسم قد تشفى ... وجرحُ النفس يستعر
يفجِّرُ غيظَ ثاراتٍ ... أنا من كبتها ضَجِرُ
ولن تُشفى جراحاتي ... ولن أنفكَّ أصطبر
إلى يوم به سيفي ... بضرب الهام ينصهر
وأفعى البعث غادرة ... يُقَطَّعُ رأسُها القذر
كذا فرعونُ سوريةٍ ... وبئس الفاجرُ الأشِر
يجُدُّ السير مرتحلاً ... وقد لاحت له سقر
ونعلنها مدوية ... طغاة الأرض قد قبروا

"وأصبح فؤاد أم موسى خاويا"

كلما كنت أمر على هذه الآية الكريمة كنت أتذكر والدتي، التي كانت مفرطة الحنان، وأتذكر حزنَها حين كنت أسافر من أجل دراستي في الجامعة، وكيف كانت تبدو واجمة وتقول لي "اجلس يا ابني أمامي حتى أراك قبل السفر"، أما لحظة الرحيل والفراق فقد كنت أكرهُها، ويصيبني الغم والكمد عندما أرى الدموع على وجنتيها.. هذا كان حالها في سفري لشهور، فكيف يكون حالها في سجني لسنين!

كنت أتوقف عند الآية، وأتساءل على أية حال باتت هذه الأم المسكينة،

فإذا كان حال أم موسى التي فقدت ولدا واحدا أنّ أصبح قلبها خاويا، بالرغم من وعد الله لها بأنه سيرده إليها (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)، فما بالكم بالتي فقدت ولدين اثنين في ضربة واحدة، ومصيرهما في علم الغيب!

كنت أدعو لها بالصبر وأسأل الله أن ينزل السكينة على قلبها.

و لكن هذا الجزء من الآية (إنا رادوه إليك) كان يُشعِرني بالاطمئنان ويبعث في نفسي الأمل ويلهمني مزيدا من الصبر.

هذه أبيات نظمتها لأمي، وأهديها لكل أم ضحت وقدمت وعانت من حكم آل الوحش والوحوش:

أمـــاهُ نـبـعَ الـعـطـاءِ ... أمـــاهُ رمـــزَ الـسـخـاءِ

أنـــتِ حـديـثٌ لـقـلـبـي ... فـي صـبـحـه والـمـسـاء

أنـــت نـشـيـدي ولـحـنـي ... ودمـعـتـي فـي دعـائـي

أمُ الـفـهـودِ وأنـــتِ ... مـصـانـعُ الـعـظـمـاء

دربُ الـجـنـان ِ وأنـتِ ... مـــدارسُ الـشـهـداء

رضـــاك فـــرضٌ وأنـــت ... تـوصـيـة الأنـبـيـاء

ربـيـتِـنـي فـي مـهـادي ... يـحـدوكِ نـور الـرجـاء

لـكـي تـرَيـنـي أمـيـراً ... كـنـجـمـةٍ فـي الـسـمـاء

لـمـا رحـلـتُ لـعـلـمـي ... لـم تـنـعـمـي بـالـهـنـاء

خـبـأتِ دمـعـكِ عـنـي ... كـي لا يُـشـابَ صـفـائـي

وكـــان يـسـعـى جـــذولاً ... قـلـبـك عـنـد الـلـقـاء

ولـمـسـة مـــن حـنـان ... كـانـت لـجـرحـي دوائـــي

لــكــنْ أصـــابـــعُ ســـوءٍ   كـــادت لـنـا فــي الـخـفـاء
لــكــي تــصــيــرَ طــريــقــي   مــجــبــولــة ً بــالــدمــاء
وكـــي تــصــيــري نــشــيــداً   يُــشــدى بــدرس الــفــداء
أمـــاه صـــبـــراً جــمــيــلا   لــلــصــبــر حــســن الــجــزاء
والـــلـــيـــل بــعــده صــبــحٌ   والـــفـــوز بــعــد الــعــنــاء
فـــاصـــطـــبـــري مــلــتــقــانــا   أمــــاه دارُ الـــبـــقـــاء

الفيل:

حضرَتْ دفعة جديدة من الشرطة، فابتكروا طريقة جديدة في تعذيبنا، إذ كان أحدهم بدينا جدا كالفيل، فأحب أن يختبر رشاقته على صدورنا وبطوننا، فكان يأمر أحدَنا أن يستلقي على ظهره، ثم يهرع هذا الفيل ويقفز على صدره، فيهشم أضلاعه.

أحد الإخوة ممن تعرضوا لهذا الأسلوب رأيتُهُ في تلك الليلة.. كان يعتصر ويبكي من شدة ألمه، لاشكّ أنه كان مصابا بعدد من الكسور في أضلاعه.. آخرون ماتوا.

مرةً كنا في التفقد كالعادة، وإذ بشرطي يضربني على كتفي ويجرُّني خارج الرتل، ويأمرني بالانبطاح، فانبطحتُ وأنا حذر متوجسٌ أن يقفز هذا الفيل فوقي، وما أن ركلني حتى نهضتُ واقفا، وتكرر الأمر عدة مرات، وثار غضب الشرطة إذ كنت أمتثلُ للأمر وأنبطحُ ثم سرعان ما أهبُّ واقفا.. كان ذلك بمثابة تمرّدٍ ورفضٍ للأوامر توجب أقصى العقوبات.

كنت أدرك خطورة موقفي ولكني فضّلت أن أموت واقفا.

غضب الرقيب وبدأ يدفعني لكي أعود فأنبطحَ ويقضيَ عليَّ، وأقبل شرطي آخر يساعده لرميي على الأرض وأخذا يدفعانني بقوة، وأدركتُ أن ساعتي قد حانت لامحالة وأني سأموت ضربا وركلا، وتوجهتُ إلى الله أن يتلطَّف بي ويكونَ موتي سهلا وأن يعينني على التعذيب وسكرات الموت، ويختمَها على الإيمان.. ولكن... تدخلَّتْ يد العناية الربانية.. فجأة أفلتوني، كأنما أمرٌ ما قد شغلهم، فانصرفوا بسرعة والرقيب يتوعَّدني.

في اليوم التالي خشي عليّ رئيس المهجع من انتقام الرقيب فأبقاني أثناء التفقد مع المرضى داخل المهجع، وعندما مر الرقيب وسأل عني أجابه إنه مريض.. ويبدو أنه كان في عجلة من أمره.. وهكذا حجبه الله عني مرة ثانية فمرّ اليوم الثاني بسلام.

كنت أسأل الله اللطف والسلامة، وكنت أحسُّ أني أعيش بين مخالب موت شرس متربص يوشك أن ينقض عليّ، فإنهم لن ينسوني..

قرأتُ حنانَك ربي جليا وحفظَك في النائبات العتيّة
فكم داهمتني خطوبٌ جِسامٌ وكم طوقتني ذئابُ المنيَّة
وسُدّتْ بوجهي دروبُ الخلاصِ وأحكمَ قيدي وضاقت عليَّ
ولم يبقَ غيرُكَ ربي رجاءا فناديتَ : عبدي إليَّ إليَّ

مع الكتائب

في اليوم الثالث يشاء القدر أن يمرّ رقيب آخر على مهجعي ويسأل رئيس المهجع: «كم مسؤول صحي عندك؟» فأجابه: «اثنان».. فقال: «أخرجِ الثاني».. وكان الثاني أنا.. حملتُ كيس أغراضي وخرجتُ، فمشى بي وفتح

باب مهجع آخر وأدخلني إليه، وكان مهجع الكتائب.. وهكذا ضاعت قصتي عن الشرطة وكان ذلك من عجائب ألطاف الله علي.

كان من جملة السجناء في تدمر فئة صغيرة من حزب الكتائب اللبناني، حوالي عشرون شخصا، خصَّصوا لهم مهجعا ووضعوهم فيه، ولم يكن بينهم طبيب أو أحد عنده إلمام بالشؤون الطبية، فقررتْ الإدارة أن تحضر لهم طبيبا من المهاجع المجاورة.

أقبل أفراد المهجع وتجمعوا حولي ليتعرّفوا على الزائر الجديد، ورحّبوا بي.

كان المهجع صغيرا نسبيا، وشبهَ خالٍ، فهذا العدد القليل لم أشاهده منذ فترة طويلة، عشرون شخصا في غرفة كبيرة.

اعتقِل هؤلاء الأشخاص أثناء اجتياح حافظ الأسد للبنان والذي استمر حوالي عشرين عاما، تخللها فترات مقاومة من بعض الفئات اللبنانية، كان من جملتها حزب الكتائب.

كانوا من حزب الكتائب اللبناني، وكان بينهم أربعة مسلمون والباقي نصارى، وبعضهم لبنانيّ الجنسية ومعظمهم سوريو الأصل والجنسية عاشوا في لبنان.

كانت معاملة هذا المهجع متميزة عن باقي المهاجع، فكانت تصلهم كميات وافرة جدا من الطعام، تفوق حاجتَهم بأضعاف، فكانوا يرمون الفائض من الأرز والبرغل والخبز والمرق في مصارف التواليت.. والحقيقة أني عرفت معنى الشبع بعد سنوات من الجوع، بينما كان السجناء في المهاجع المجاورة يعانون من الجوع الدائم، ويحرصون على حبة الأرز وكسارة الخبز

ويلعقون اللبن من الأرض عندما يسيل من الطبق أثناء إدخاله إلى المهجع.

كانت مقابلات الشرطة لهم في التفقد وغيره سلميّة وهادئة من غير ضرب أو أذى أو حتى شتيمة، أما في التنفس فكنا نخرج إلى الساحة منتصبي القامة ونمشي بهدوء في الهواء الطلق والشمس لمدّة نصف ساعة ونعود أدراجنا.

أحيانا كان يتزامن تنفسنا مع مهجع مجاور في نفس الساحة، فكنت ألمَحُ إخواني جاثمين على الأرض، مطرقين، مستديرين إلى الحائط، والشرطة يدوسونهم ويركلونهم ويضربونهم، وصرخات الألم تهدر في أرجاء الساحات، فيحز وضعهُم في قلبي، وأتفكر أنه هكذا كان حالي قبل أيام.. وأعتصر ألما وحزنا، وأحمَدُ الله أن نجّاني من العذاب، وأسألُه أن يرفع الضيم عنهم.

لم تمض فترة طويلة حتى بدأ بعضهم في الكيد لي وتأليب أفراد المهجع ضدي بحجة التحيّز الطائفي، أي أني أهتم بالمسلمين منهم، وأخصهم بزيادة في الدواء، وبحجة الدعوة إلى الإسلام وتحفيظ القرآن، حتى أن أحدَهم وهو أيضا أسفهَهَم «الياس» اشتكى إلى الشرطة، وادَّعى أنه مظلوم، وأني لا ألبّي حاجاتِه من الدواء وتسبب لي بعقوبة «الدولاب» من الشرطة، عليه من الله ما يستحق.. وكثيرا ما كان يعتريني الاشمئزاز من وجودي مع هذه المجموعة الكارهة لي والحاقدة.. والطريف أنهم كانوا يمنُّون عليَّ أن أحضروني إليهم وخلَّصوني من بطش الشرطة، وكأنما هم الذين اختاروني أو أني نزلتُ بيتهم.. فكنت أكره مجيئي لعندهم وأتمنى لو أني بقيت مع إخواني في مهاجعهم يصيبني ما يصيبهم، ولكني كنت سرعان ما أغير رأيي عندما

أسمع صدى الصرخات والتعذيب الهمجي الوحشي يرتجُّ في الساحات.

حتى علاقاتُهم مع بعضهم كانت سيئة، وفي نزاع دائم على أتفه الأمور، فكانوا يتنازعون على اللقمة، وكانوا شرسين في شجارهم، ويتراشقون بالألفاظ النابية والسوقية، وترتفع أصواتهم بشكل مخجل.. حتى المسلمون منهم، لم يكونوا أحسن حالا ولم أسلم من شرهم، وتعرضت لعدة مواقف صعبة.

كنت غالبا أضطر إلى تفادي المشكلة، وقد أسرَّ إليّ أحدُهم (جورج) وحذرني أنهم اتفقوا على تقديم شكوى ضدي أني أسب الرئيس وسوف يشهدون مجتمعين على ذلك زوراً وبهتانا، وطبعا شهادة كهذه في مكان كهذا كافية لقتلي.. وقال لي حينذاك «شاهدان اثنان يوصلان الرجل إلى حبل المشنقة».. ولكن اللطف في القدر استمر في مرافقته لي، فبعد أيام فتح الباب، ودخل علينا سجينان بتهمة إسلامية، وقد أُحضرا إلى هذا المهجع من باب التوصية بهما، على اعتبار أن هذا مهجع «المدللين»، فقويَ موقفي وتراجعوا عن مخططهم الخبيث.

روى لي «جورج» هذا أنه قضى فترة في فرع التحقيق في زنزانة مع ثلاثة من المسلمين، وقد أظهروا له المودة والتعاطف، فكانوا يؤثرونه في الطعام، فيتباطؤون في الأكل حتى يفسحوا له قدرا أكبر من الطعام الشحيح...

وكان لديهم علبة حلاوة فارغة، خصصوها للتبول باعتبار أنه لايوجد مرحاض في الزنزانة، فكانوا يجورون على أنفسهم ويتماسكون حتى يخرجوا إلى الحمام، ويتركون العلبة متاحة لهذا الرجل يقضي فيها حاجته.

ذهل الرجل بهذا الإيثار في موضع لايسمح بهكذا تعامل، واعتنق الإسلام

وبدأ يصلي ويحفظ القرآن، وتكنى ب «أبو عكاشة».

فرح السجناء به كثيرا وأكرموه وأصبح محطّ حديثهم واهتمامهم، فكان كلما حفظ سورة باركوا له وهنأوه، وروى لي أنه حين حفظ سورة القيامة فرحوا بذلك وتناقلوا الخبر وقدموا له ما تيسر من الفاكهة كهدية.

عندما أُحضر إلى تدمر واجتمع مع رفاق حزبه انزعجوا من إسلامه وضيَّقوا عليه الخناق، وأعلنوا عليه الحرب حتى أجبروه على التراجع، ولكن عندما حضرتُ أسرَّ لي بالأمر، وصار يحفظ مني القرآن سرا.

جــوني

جوني ضابط في الجيش السوري، تعرض لمحاولة اغتيال من قبل الإخوان المسلمين في حلب ونجا منها بأعجوبة، إذ التبس الأمر على القاتلين، وقُتل شخص آخر كان موجودا بالصدفة في بيته أثناء العملية عوضا عنه (على روايته).

كان جوني مهذّبا خلوقا ودودا، ومن طرائف الأقدار أن توطدت بيني وبينه صداقة قوية، حتى أنه كان شريكي في الطعام لمدة سنوات.. والحق يقال.. أني لم أرَ منه إلا حُسْنَ الخُلُقِ والمعشر، وروى لي تفاصيل حياته وعائلته.. وكان متدينا يصلي.. وكنت عندما أنتهي من الطعام أقول مازحا: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»، فيقول: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ولم يجعلنا مسلمين» فنضحك سوية..

كان خال جوني من اللاذقية ومتواجدا في لبنان، فكلّفه حزب الكتائب

بنقل رسالة إلى جوني في سوريا يعرضون عليه الانضمام إلى حزب الكتائب والتعاون معهم.

أحدهم وشى على الخال.. والرسالة لم تصل إلى جوني إطلاقا.. (وهذا يدل على أن المخابرات الأسدية كانت مخترقة حزب الكتائب) وألقيَ القبض على الخال على الحدود وكُشفت معه الرسالة، وعلى إثرها اعتقل جوني الذي لم تصله الرسالة ولم يعلم بأمرها أصلا!

النتيجة كانت أن الخال أعدم في تدمر.. وجوني مكث في السجن ما يزيد عن عشر سنوات بتهمة أنه قابل للانتساب إلى حزب الكتائب!.

كان «جرجس» يلعب دور الكاهن الوصي على المسيحيين في المهجع، ويعطي التوجيهات والتوصيات الدينية، ويعتبر نفسه أنه يحمي حمى الصليب وأتباعه، وقد صرَّح بأنه كان يطمح أن يكون راهبا.. وبالمناسبة فإني لست ضد الرهبان ولا الكهّان، ولكن ضدّ التعصب الأعمى والحقد البغيض.

«الياس» الذي اشتكى عليَّ إلى الشرطة، كان أحد التافهين الفارغين الذين استخدمهم جرجس وغيره كرأس الحربة ضدي، وقد نجحوا في مأربهم عدة مرات وألحقوا بي الأذى.

دار شجار مرة بيني وبين «الياس» واحتدَّ الحوار، فانبرى جرجس للدفاع عن الياس وتهجم عليَّ بالكلام.. وهنا كانت المفاجأة التي لم أكن أتوقعُها إذ تدخل جوني ورد على جرجس قائلا: «لماذا تتدخل في المسألة وتنحاز إلى الياس يا جرجس؟».

فصاح جرجس منفعلا وقال باللهجة اللبنانية: «الياس خَيِّي» -أي أخي

في الدين-.

فأجابه جوني: «وأسامة خيّي».

انتهت المشكلة عند هذا الحد، وكان ذلك من أشجع وأنبل المواقف التي شهدتُها، إذ وقف هذا الرجل وواجه أبناء دينه من أجلي، وكان نزيها لم ينجر إلى التعصب الديني لينحاز إلى أبناء دينه.

هذه شهادة حق تقال في جوني وغيره، وأنا أفتخر بوجود أهل كتاب في بلدنا من هذا النموذج.. جوني الذي أنصفني ونصرني في ذلك الموقف حين كنت أقف وحيدا بين نارين: شرطي مجرم في الخارج، وسجين حاقد في الداخل، ولاتزال تربطني معه صداقة طيبة حتى يومنا هذا.

جورج سمعان سجين آخر كان معنا، كان مضطربا نفسيا، يعاني من فراغ فكري كبير، وقد سألني عن الإسلام عدة مرات.. حاول الانتحار في السجن، وقد علمت أنه انتحر بعد خروجه من السجن.

محمد كان أيضا معنا ومن حزب الكتائب، لم يستطع تحمل شدة السجن وفقد عقله، لكنه كان مسالما.

كان محمد يلاحظني أصلي بعيوني إيماءاً، فاقترب مني ذات مرة وقال لي: «لاتصلِ».. ثم انصرفَ.. هززتُ رأسي وابتسمتُ ولم أعلق على كلامه.

بعد أيام رآني مرة أخرى أصلي، فقال لي : «ألم أقل لك لا تصلِ؟».

قلت: «نعم، قلتَ لي، ولكن كيف لا أصلي، والصلاة فرض في الإسلام؟»..

قال: «أنا مُحَمَّد (يقصد النبي محمد)، وأقول لك لاتصلي»!

كان طريفا ويقول لي: «أكثر من شرب الشاي حتى ينبت الشعر في رأسك لأنك أصلع»!

الانتقام الرباني ١٩٩٤

كنا في غيابت الجب، معزولين عن العالم الخرجي تماما، ولا نعلم بالأحداث المهمة إلا بعد دهر من الزمان وذلك عندما يصلنا سجين جديد، فنستقي منه الأخبار، ونجلس حوله بعد أن يستردَّ أنفاسه بعد حفلة الاستقبال، ونسمع منه مايدور في هذا العالم وكأننا من أصحاب الكهف.

فمثلا لم نعلم بانهيار الاتحاد السوفييتي إلا بعد أكثر من سنة على الحدث، عندما قرأنا في جريدة عبارة «الاتحاد السوفييتي سابقا»، فدهشنا من كلمة سابقا، وفهمنا أن الاتحاد السوفييتي صار من الماضي، وكذلك هدم جدار برلين وتوحد الألمانيتين لم نعلم به إلا بعد سنوات.

كان يرجع السجين أحيانا من الزيارة، فيخبروه أن أمه أو أباه قد توفي منذ سبع أو ثماني أو عشر سنوات، فيدخل المهجع ويجهش في البكاء، ونعزيه في مصابه!

في أحد أيام الشتاء البارد انطلقت المآذن بقراءة القرآن بشكل كثيف لم نعهده من قبل، واستمرت قراءة القرآن أياما.. لم نعرف لماذا؟

توقعنا أن يكون الزعيم قد مات، فمن الواضح أن أمرا جللا قد وقع، فقراءة القرآن المستمرة بهذا الشكل غير مألوفة ولاتحصل إلا عند وفاة الشخصيات المهمة، وخشينا أن يكون الرئيس مات مقتولا، لأنه سوف يحلّ الانتقام بنا، ولكن هذا الأمر لم يحصل!

على العكس من تخوفنا فإن أمور السجن مالت إلى الهدوء، وخفّت شراسة الشرطة، وبقي اللغز قائما لأسابيعَ إلى أن استُدعيَ أحد المساجين في أمر ما وعاد يحمل الخبر.. إنه مصرع الباسل، وهنا انحلّ اللغز، وكان الجواب مفاجأة كبيرة لم تكن في حسبان أحد.

كان ذلك في ٢١ كانون الثاني، في نفس يوم اعتقالنا من السنة بالضبط ولكن قبل ثلاثة عشر عاما، أنا وأخي، فهل كانت هذه رسالة من رب الأرباب، ومن المنتقم الجبار، أن سيكتوي الظالم بنفس النار التي كوى بها شعبه؟ وهل كانت رسالة خاصة إلى أمي أو أبي، أنّ الذي انتزع ولديكما من بين أيديكما، هأنذا أنتزع من بين يديه فلذة كبده، وفي نفس اليوم بالضبط بعد ثلاثة عشر عاما؟

صارت تدور الخواطر برأسي عن هذا الدرس العظيم الذي لقَّنَهُ رب العالمين للبشر، فحين عجز العباد، وغُلبوا على أمرهم، وحَسِب فرعونُ أن لن يقدِرَ عليه أحد، وحسب أن لم يره أحد، وقال ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري، وظن الجهول أنه خرج من المعركة ظافرا ناجيا.. أتاه الله من حيث لايحتسب، وأصابه في مقتله، في عقر داره وبأغلى ما يملك.. وانتزع من بين يديه وليَّ عهده.. فيا سبحان المنتقم الجبار، الذي يمهل ولا يهمل، وصرت كلما وصلت إلى قوله تعالى «أليس الله بعزيز ذي انتقام» أقف عندها مليا وأقول «بلى يارب.. عزيزٌ ذو انتقام».. ونظَمتُ حينها هذه الأبيات:

يا ساقيَ الناس من كأس بها النكدُ منها اشربنَّ وذقْ ما الناس قد وجدوا
أرسلتَ حبلاً على الأعناق تخنقُها وإذ ببيتِك حبلُ الموت ينعقدُ
أوقدت بركانَ حقدٍ زافراً محناً حتى أتاك انتقام الله يتَّقِدُ
لما سمعتَ بكا ثكلاك باسلَها ترى عرفتَ أخيراً ما هو الولدُ؟
كم قد فجعتَ أباً بابنٍ ووالدة وكنتَ في طربٍ لما بكى البلد
على الألوف من الأزهار إخوتِنا والأرض شاهدةٌ والحبلُ والزرد
ما كان موتُ الفتى يأتي مصادفة والدرس متضِحٌ فافهمْهُ يا رمِد
إن يَعْجِزِ الناسُ فالأقدارُ نافذة إن حان موعدُها ما ردَّها أحد
لله في خلقِهِ جندٌ مجنَّدَة تنبَثُّ خافيةً.. ما حدَّها عدد
في العين مهملةٌ، في الوزن راجحة في الحكم ماضية، لله تحتشد
سيفُ المنيةِ إذ يهوي القضاء به ينقضُّ صاعقةً، في الحزم منفرد

***

يا قاتلاً نجلَه بالظلم لا ظفِرتْ يمناك خيراً، ولا اليسرى لها الرشد
أغوتْكَ سُحْبٌ من الطغيان آثمة وعرشُ بغيٍ إلى الإجرام يستند
وغرَّك الهُرْجُ بالتطبيل قد برعوا ونصَّبوكَ إلهاً.. بئسَ ما عبدوا
ربُّ المجازر، والإرهابُ حكمتُهُ والقتْلُ منطقُهُ، والصدق مُفتَقَد
تلك القوافلُ في الصحراء ما نُسِيَتْ في عنْق من دمُها؟ يا وغدُ تعتقد؟
يا رُبَّ أمٍّ على الأحزان عاكفةٍ ترمي الدعاءَ وإذ بالعرشِ يرتعد
ظلت تُهيلُ عليك اللعنَ ألسنة حتى قضى ابنُك فانظر ما جنته يد

***

يا حاكماً زمناً بالغدر محتقناً وفي طباع الوحوش الغدرُ مُعتَمَد
ورمزَ عارٍ مدى الأزمان تحملُهُ أبشرْ بهاويةٍ في جيدِكَ المسد
فأنت حافظٌ لم تحفظْ سوى سَقَطٍ وكنتَ مفترساً للشعبِ يا أسدُ

موت الباسل في مذكرات أبي رحمه الله:

«بينما أنا في صلاة الفجر كسيرُ الخاطر أمام رب العزة، حيث اعتُدتُ أن أدعوَ للأسرى من أبناء المسلمين بالفرج، وأختم توجهي بالدعاء لأولادي، سألت الله بضراعة فقلت: يارب هل يمكن أن أغادر هذه الدنيا دون أن أرى مَن ظلمني يذوقُ من بعض الكأس الذي شربتُهُ؟

(ملاحظة:كان هذا التشبيه بالشرب من كأس الظلم توافقا في الخواطر بيني وبين والدي، فيا سبحان الله).

لم يتأخر الجواب، فهل كان حقا جوابا لسؤالي؟ ولكن من أنا عند الله؟ قد أكون أحقر من أن أطلب من الله العظيم طلبا، ولكن ألم يقل رسوله الكريم: اتقوا دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب، هل كانت أبواب السماء مفتوحة؟

كان الجواب الذي لم يخطئ في يوم الجمعة ٢١ كانون ثاني ١٩٩٤... نفس يوم اعتقال ولديّ الحبيبين بالضبط... ألم يكن ردا إلهيا؟

لقد ذاق صانع الأيتام والثكالى بعضَ ما أذاقهم.

في اليوم التالي (السبت) حُشرت القطعان من كبير وصغير ليحزنوا - تحت إجبار قوى المخابرات- على من كان مُخطَّطا له لولاية العهد.. لمدة أربعين يوما حُشِد الملايين في مسيرات الحزن المفروض، أقفِلت

كلُّ الأسواق وتجمّدت الحياة بأوامر كلاب المخابرات. أقيم له ضريح في القرداحة كأضرحة الملوك وأصبح مَحَجًّا للخراف والمهرجين والممثلين.

ومن البليَّة أن يعطي أحدُ المشايخ القتيلَ صفة الشهيد!.. إنه باسل الأسد: ١- الرائد ٢- المهندس ٣- المظلي ٤- الفارس الذهبي.. والذي بلغت أرصدته النقدية في النمسا وسويسرا عشرات المليارات من الدولارات.»

الشعر والرسائل

كتبت في هذه السنوات الطويلة قصائدَ عديدة، أولها كانت لأخي الشهيد حسام، والثانية كانت رسالة إلى أمي، ثم إلى أبي وأخواتي وبيتي وذكرياتي.. وكنت أرسل هذه القصائد مع الخيال، أو الرياح او الطيور.. وأظنها كانت تضيع في الطريق!

وكنت كثيرا ماأتغنّى بذكرياتي مع أهلي وأسترجع الأيام الخوالي والنعيم والرخاء الذي كنا نعيش فيه، وأتذكر أبي كيف كان حريصا على أن نكون مثاليين في كل شيء، وكان يسابق الزمن من أجل تعليمنا، وأذكرُ كيف سبَّقني في تعليمي سنتين دراسيتين عن أقراني، فإذا بي أهوي خمسة عشر عاما إلى الوراء في غياهب الكهوف!

الزيارة الثانية عام ١٩٩٤

في تلك السنة أتيحت لي زيارة أخرى من أهلي، بعد أن مضى على زيارتي السابقة عشرُ سنوات كاملة، لم يصلني عنهم أي خبر، كان اللقاء مشحونا، وقد بدت الشيخوخة والإرهاق على والديّ، والحزن قد فعل في والدتي ما فعل، حتى أنها عند دخولي غرفة الزيارة هبت واقفة، ولكن قدماها

خذلتاها من صدمة اللقاء، وارتدت إلى الخلف وسقطت على المقعد الذي كانت جالسة عليه ولم تقوَ على الوقوف، سارعت إلى تقبيل يديها، كان الألم واضحا في قسمات وجهها رغم أنها حاولت أن تتصنع الابتسامة.. الابتسامة المذبوحة منذ أربعة عشر عاما.

أخي الصغير «مهند» حضر في الزيارة.. كم كنت شغوفا به في صغره وأوليتُهُ من اهتمامي الكثير،.. ولطالما حلمتُ به في سجني وناجيتُه ونظمتُ له القصيد.

كان قد مضى على فراقنا أربعة عشر عاما.. تركتُهُ ابن سبع سنوات، وقد بلغ الآن أحد وعشرين عاما، ولم أرَهُ منذ ذلك الحين، وصار كما كنت أتخيله في قصيدتي شابا (في قَدْر الرجال).. عرفتُه فورا، وكم كنت مشتاقا لرؤيته، لأنه لم يكن حاضرا في زيارتي الأولى قبل عشر سنوات، وقد حزّ في نفسي أن لا أراه.. وكان يحاول أن يضفي على اللقاء طابع المرح والدعابة، فيقول (يكفي في العائلة طبيبان، البلد بحاجة إلى سبَّاك وبلاَّط ودهَّان).

هذه إحدى القصائد التي أرسلتُها إلى أخي:

شقيقَ الروحِ يا حُلُم الليالي ... وأحلى ذكرياتٍ في خيالي
ذكرتُكَ يا أخِيْ فاهتزَّ قلبي ... وذوَّب أسطُري لهبُ المقالِ
فرُحتُ أخطُّ من قلمٍ كسير ... إليكَ رسالتي عَبر الجبالِ
ولا أدري تراها هل ستلقى ... رسولاً، أم تضيع على الرمال
تركتك يا أُخَيَّ وأنت طفل ... وصرتَ اليوم في قَدْر الرجال
وكنتُ بوقتها نَضِراً فتياً ... وهأنذا على شفةِ الزوال
وبيتٍ كان للأحباب ورداً ... يغصُّ اليوم من فقد الغوالي

فأصبحنا:أخٌ منا شهيدٌ — وآخرُ تحت رامية النبال
ألا وامسحْ برفقٍ دمعَ أمي — إذا نظرت لكتبْي أو خيالي
وإن تَرَها مع الأحزان ليلاً — تقومُ تضمُّ طاقيتي و شالي
وفي سَجَدَاتك ادعُ الله كسر — لأغلا لي، وحرقاً للحبال

حاول أهلي أن يسألوني عن حسام.. كان الشرطة طبعا يراقبون كل نفس وهمسة، فتجاهلت السؤال، وأيقنت أنهم سوف يستمرون في محاولاتهم للقاء حسام، وسيبذلون الجهد والمال في سبيل وعود زائفة.. ففكرتُ أن أنقل الخبر إليهم بطريقة الألغاز والحيلة، بأن أستعمل كلمة «أبو النور» التي كان حسام معروفا بها ويُكنى بها بين الأهل في إشارة مني للدلالة عليه بدلا من ذكر اسمه صريحا.. لم أختر أمي أو أبي لعلمي أن أعصابهما لن تتحملا الخبر.. كانت خالتي حاضرة في الزيارة فرأيت أنها الأنسب لتلقي الخبر، ولثقتي بهدوئها واتزانها، فقلت لها «سلّمي على أولاد خالي أبو النور – الله يرحمه–».. فكانت هذه إشارة مني بأن أبا النور قد صار في ذمة الله، وقد فهِمَتْها الخالة.

أنقل وقائع نفس الزيارة لكن برواية أبي رحمه الله:

زيارة الحبيب أسامة في تدمر عام ١٩٩٤

طلبات متعددة أرسلت إلى رئاسة المخابرات من أجل الزيارة في مضافة تدمر، إلى أن أثمرت بالموافقة أخيرا في ٢٤ تشرين أول وحصلنا على الإذن الخطي لزيارة أسامة فقط دون أخيه حسام، الأمر الذي أصابني بالوجوم طيلة الطريق الذي يمتد ٢٥٠ كم، وقد شمل الإذن: أم أسامة وخالته وأخاه وأنا.

بعد عدة إجراءات في سجن تدمر أُخِذنا إلى نفس الغرفة التي كنا رأيناه

فيها منذ عشر سنوات. استقبلَنا في الغرفة ضابط صف برتبة مساعد (الذي كان يبدو نسخة مصغرة عن حافظ أسد)، وبعد حوالي عشر دقائق أمر باستدعاء أسامة.. وكان لقاء الدموع والآهات..

لفت انتباهي مخاطبة أسامة لضابط الصف ب (احتراماتي سيدي)!.. فرأيت العلم والأخلاق والمُثُل العليا أين يكون مكانها!.. تحت أحذية الجهلة السفلة جلادي الديكتاتور في السجون.

تعليق من خالي عاصم على تلك الزيارة:

فيما يخص الزيارة الثانية لك في تدمر...طلبت مني والدتُك أن أتكلم مع أحد المسؤولين من أجل زيارة لك.. سألت فقيل لي أن الشرطة العسكرية هي المسؤولة عن سجن تدمر، وكانت تربطني مع العميد «رسمي العيد» وشقيقه المسيحيين من حوران علاقة صداقة، فأخذت أمك بسيارتي وذهبت معها الى القابون حيث مدرسة الشرطة العسكرية... استقبلَنا العميد بكل ود وقبَّلني وشرحت له الموضوع.. اتصل هاتفيا وسأل عن اسمك فيما إذا كنتَ من سجناء تدمر.. جاءه الجواب بالإيجاب فأمر بإعطائنا إذنا بالزيارة.

كان العميد عبد الرحمن قد أبلغني عن إعدام المرحوم حسام واصابة عينه، وكان قد علم بذلك عن طريق صديقه عدنان بدر حسن رئيس الفرع السياسي، ولكني اضطررت إلى كتمان الأمر أمام الأهل خشيةً على مشاعرهم.

ابتهال

إلهي بسطتُ أكف الدعاءِ وقد بسط الظلمُ جُنحَ البلاءِ
ولفَّ الأنام سكونٌ وليلٌ وضجَّت شجوني وعزَّ دوائي

إلى مبتغايَ طريقٌ طويلُ ... أريد الشراءَ وذخري قليلُ
فكيف المفازُ بسلعةِ ربي ... ودون المنال مصابٌ جليلُ
مشيت إليها أنوءُ بحملي ... ودنيا دعتني، ونفسي تميلُ
أجبتُ نداها فأغوَتْ فؤادي ... نسيتُ مرادي وشقَّ الرحيلُ
قعدتُ بظلّ لدنيا تغني ... فتاهَ المسيرُ وضاع الدليلُ
ولما أفقتُ بوادي الأفاعي ... صرختُ هلوعاً أغثْ يا وكيلُ
أريدُ الخروجَ لشطّ السلامة ... وأمَّارةُ السوء تبغي المرامَ
وترسلُ موج الهوى والأمانيْ ... لتقذفَني في بحور الندامة ْ
أسيرُ بغابةِ رعبٍ مُريبة ... تَهيجُ بها الضارياتُ الرهيبه
وأسمعُ رجعَ الضحايا أنيناً ... فينبتُ ثأرٌ بماءِ االمصيبة
وأحملُ درعي اتقاءَ الطعان ... فتسخرُ مني سهامُ الزمان
متى ردَّ عنك احتراسٌ قضاء ... فلا نامتِ العينُ عينُ الجبان
تَهيجُ المنايا وترمي الرماحا ... وترسلُ سيلَ الردى والرياحا
تزلزلُ أرضي تهدِّمُ سقفي ... وهذا عدوي دمائي استباحا
فأسقطُ بين مخالب يأس ... وأشعرُ حتفي يجيءُ اجتياحا
وأذكرُ أني بحفظ عظيم ... يغيثُ العبادَ.. يداوي الجراحا
وأوقنُ أني إذا شاءَ ربي ... أسيرٌ مساءاً.. طليقٌ صباحا
فتسري الحياةُ وتشرق نفسي ... وأرقبُ فتحاً على الأفْقِ لاحا
قطار الحياة يمر سريعا ... ويَخطَف شيخاً وطفلاً رضيعا
وسهم المنون ليس يبالي ... بمن كان جَلْداً وكان جزوعا

وطاحونةُ الدهر تحت رحاها يساوي الأميرُ الفقيرَ الوضيعا
فأين ظلومٌ يتيهُ اختيالاً وأين عذابُ السجين مُريعا
يزولُ الجميع ونمسي ترابا ونُبعثُ منها سواءاً جميعا
وبعد النشورِ حسابٌ ووزنٌ يذوقُ الجناةُ العذابَ الشنيعا
إلهي سألتُكَ بالمَكرُماتِ جوارَ الرسولِ ومثوىً رفيعا
ولا ربِّ قابلتني بفعالي وهذا دعائي لديكَ شفيعا

السنة الأخيرة في السجن

في السنة الأخيرة حصل تطور جديد معنا، إذ صارت تصلنا الجرائد الرسمية لأول مرة بعد ١٤ سنة من الانقطاع والعزلة الكاملة عن العالم الخارجي.. ومع أنها كانت ناطقة باسم الحكومة ومقالاتها الفارغة، فإننا كنا نقرأ جميع ما فيها من أخبار (عديم ووقع بسلة تين)، حتى الأخبار التافهة (ومعظمها تافهة)، وكنا نستنتج منها أخبارا قديمة، وقد يكون مضى على الجريدة أسبوع أو اثنان أو شهر، ومع ذلك كانت لنا نافذة على العالم.

كان من جملة ما قرأت حينها تفاصيل موت باسل وما رافقه من مواقف وتعليقات (طبعا وذلك بعد سنوات من موته) وقرأت كلمة الشيخ سعيد البوطي آنذاك، وتفاجأت بها كثيرا، وكنتُ لا أصدق ما أقرأ، وشعرت بالتقزز والغثيان ثم لم أتمالك نفسي أن بصقتُ على الجريدة.. فقد كنت في يوم من الأيام ممن يستمعون وينهلون من علمه، وما كنت أتصور أن يمشي علماؤنا في مواكب النفاق للظالمين.. كنا نعذَّب ونقتل في السجون، وعالِمُنا الفاضل يبكي على الظالم ويشهد له بالتقى ويعطيه بطاقة الدخول إلى الجنة!

أذكر قصة العز بن عبد السلام التي سمعتها من البوطي عندما كنت أرتاد دروسه.. كيف كان يقول كلمة الحق، ولايخشى في الله لومة لائم، حين وقف ضد المماليك، وأفتى ببطلان شرعيتهم في الحكم.. وفي إحدى الليالي وبعد أن ضاقوا به ذرعا حضروا إليه ليقتلوه، وحاصروا بيته.. فرآهم ابنه، فهُرع إلى أبيه وهو يقول له : يا أبت انجُ بنفسك، إنهم الجنود يريدون قتلك.

فما كان من العز إلا أن قال: «يا بنيَّ إن أباك أقلُّ من أن يقتلَ في سبيل الله»، رواها البوطي وقد تهدج صوته ودمعت عيناه.. يا خسارة العلم.

نعم يا خسارة علمه الذي وظَّفه في خدمة الطاغوت.. ولسخرية الأقدار أن قتله الطاغوت نفسه الذي أحرق نفسه لأجله.. نسأل الله العفو والعافية وحسن الختام.

لم تتغير المعاملة كثيرا، من حيث الطبيعة الإرهابية للسجن والعقوبات والضرب والتعذيب، ولكن حوادث الموت تحت التعذيب صارت أقل مما سبق، وكأنما كانت الأوامر بأن يكون الضرب دون حدود القتل، واستمر الضرب حتى آخر يوم في سجننا، وخرج بعضنا ولاتزال على وجهه آثارٌ حديثة من الصفعات والكدمات.

تعاقب على إدارة السجن عدة أشخاص، كان آخرهم «غازي الجهني» وكان الأسوأ بغير منازع، فبعد أن مالت المعاملة للهدوء بعد حوالي عشر سنوات من السجن، عادت واشتعلت من جديد بعد استلامه، وصار الجَلْدُ يبلغ أرقاما قياسية قد تصل إلى ألفي جلدة على الظهر والأقدام.

هذا المجرم كان حريصا على تفقد الطعام قبل وبعد دخوله المهاجع،

وشحَّ الطعام كثيرا على دوره، وكان يراقب التوزيع بنفسه ليطمئن أن حصة الفرد الواحد لاتزيد عن خمس أو ستِ حبات من الحمص أو ربعِ بيضة.

كان حريصا في التعذيب أن يبلغ أقصى مداه حتى لايستطيع أحدنا المشي ولا الوقوف، ولا يشتفي صدره حتى يرى المعذَّب شبه مشلول..

هذا المجرم الذي كان يسعى إلى شلِّ المساجين أصيب في حادث سيارة، فقُتل أحد أولاده فورا، وأصيب هو بالشلل، الشلل الذي كان يتمناه لكل سجنائه، وجلس على كرسي العجزة المقعدين لمدة سنتين ثم رحل إلى سقر بإذن الله، وبئس المصير... فسبحان المنتقم الجبار!

لجنة أمنية في تدمر

في أواخر ١٩٩٥ حضرت لجنة إلى تدمر وبدؤوا يقابلون السجناء، كانت لجنة من كبار ضباط المخابرات، وكان بينهم هشام اختيار الذي قضى مقتولا غير مأسوفٍ عليه في تفجير خلية الأزمة مع آصف شوكت.. كانوا يقابلوننا أفرادا، وكانت المقابلات هادئة إجمالا، ويسألوننا بعض الأسئلة أقرب إلى الدردشة والتسلية والسخرية، مثل هل أنت نادم على ما فعلت؟.. وما هي مخططاتك إذا خرجت من السجن وهل تتعاون معنا؟

لم نعرف ماذا وراء هذه المقابلات، وما الداعي الذي دفعهم للتفكير فينا، ولماذا تذكَّروننا بعد ١٥ سنة!

بعض المساجين كان حظهم عاثرا في هذه المقابلات.

قالوا لأحدهم «نريدك أن تظهر على شاشة التلفاز، وتصرح بأنك نادم على ما فعلت».

خاف المسكين وقال «لا، لا أظهر على التلفزيون».. فلبث في السجن بضع سنين.

وآخر قالوا له: «مارأيك أن تتعاون معنا بعد خروجك من السجن؟» – أي أن يكون مخبرا–. فأجابهم الرجل ببساطة وعفوية: «ياسيدي، بعد هذه الشَيبة تريدني أن أتعاون معك!».. (طبعا كانت هذه إهانة غير مقصودة)

فاستشاط المحقق غضبا، وما كان منه إلا أن خلع حذائه وانقض على الرجل يضربه على رأسه بحذائه.

وآخر قالوا له: «ألست نادما ياهذا؟».

فقال: «يا سيدي إنما كنتُ أجوّدُ القرآن».

فقال له المحقق: «خلّيك في المهجع عم تجود».

أما أنا فسألني أحدهم «ما رأيك بحوادث القتل التي قامت بها عصابات الإخوان؟».

قلت له، وأنا أظن أني أعطيه الجواب المناسب: «إنها خطأ يا سيدي».

هاج في وجهي، وفاجأني في ردة فعله، وقال منفعلا والشرر يتطاير من عينيه: «خطأ.. فقط خطأ.. تقول عن الإجرام خطأ؟ هل هذا جوابك؟.. هل تفجير الحاويات وقتل عمال النظافة خطأ؟ فقط خطأ؟».

فاستدركتُ الموقف بسرعة ورحت أكيل الشتائم والتهم إلى عصابة الإخوان، المجرمين قتلة الأبرياء!..وأحمَدُ الله الذي كفاني شره ويسّر أمري.. أما من كان حظه عاثرا في المقابلة فقد امتد به مجموع سنوات

السجن إلى عشرين سنة أو أكثر، وكثيرون لم يخرجوا إلا بعد موت المقبور، وأحدهم (وأعرفه شخصيا) مكث سبعا وعشرين سنة.

نقلُنا إلى دمشق

بعد أيام بدأوا يذيعون الأسماء، وأركبونا هذه المرة في باصات عادية (بدل الشاحنات المغلقة)، فاستبشرنا خيرا.

هانحن أخيرا نخرج من غيابت الجب، ونغادر هذا المكان المقيت.. نظرتُ إلى أسوار السجن وتأملتُ جدرانَه التي تخبِّئ وراءها آلاف القصص والأهوال، وحكاياتٍ لا تنتهي من العذاب والقتل والحقد..

هنا أمضيتُ خمسةَ عشرَ عاما، هي زهرة شبابي.. دخلتُ من هذا الباب وكان عمري ٢٣ سنة والآن أخرج منه وعمري ٣٨ سنة.. هنا ضاعت كلُّ تلك السنوات.. تحت الكرباج والجلد والسياط.. والجوع والإهانات.. والرعب والمرض..

هنا استشهد أخي.. وهنا استشهد الآلاف على حبال المشانق، في صمت وخفاء.. مجازرُ لمدة سنوات تحت أجنحة الظلام..

هنا اغتيلَ العلمُ والأخلاق والفضيلة.. هنا يحكم الحذاء العسكري، ولا اعتبار لأي شيء آخر.

ياترى هل يعلم أحد ماذا كان يجري وراء هذه الجدران؟.. خواطرُ وخواطر..

كانت الساعة التي أعطاني إياها أبي في يدي.

أقبل إليَّ أحد أفراد الدورية وقال لي «أنت أسامة؟». قلت «نعم». فانصرف برهة من الوقت ثم عاد وقال «أعطني الساعة».

كانت الساعة صناعة سويسرية، قديمة ولكنها محببة من قلبي، وذكرى من أبي، أعطيتُهُ الساعة مُكرهاً، واستغربت لماذا سألني عن اسمي!

بعد قليل رجع إلي وقال: «رئيس الدورية يريد أن يحتفظ بالساعة، مارأيُك؟».

كانت الخيارات أمامي إما أن أوافق وإما أن أوافق.

استنتجتُ أنهم كانوا واقفين يراقبوننا أثناء قراءة أسمائنا وصعودِنا في الباصات، فرأوا الساعة في يدي فحفظوا اسمي لكي يسرقوها مني، وجاؤوا بعد برهة من الوقت وافتعلوا هذه المسرحية ليسرقوا الساعة.

وصلّنا فرع المخابرات في دمشق، وأنزلونا إلى القبو.. خلال أيام جرت مقابلات أخرى شبيهة بتلك التي جرت في تدمر، أعيد على أثرها أيضا عدد منا إلى سجن تدمر أو سجن صيدنايا، لسوء المقابلة.

بعد أيام حصل الذي كنا ننتظره منذ خمسة عشر عاما... أذيع اسم حوالي عشرين شخصا وأخلي سبيلهم.

في اليوم الثاني تكرر الامر، ثم الثالث فالرابع واستمر المسلسل حوالي شهرا.. كنا فرحين ننتظر الدور، المهم أن الناس يخرجون من قبورهم.

استنتجنا أنهم لا يريدون إطلاق سراحنا دفعة واحدة حتى لاتحدث ضجة في البلد، أو لأمر آخر لم نعلمه!

فجأة توقفت سلسلة الإفراجات، ظننا أن الأمر مؤقت، ولكن هذا الانقطاع استمر أكثر من شهر.

بدأ القلق والهواجس المخيفة تدور في مخيلتنا.. فلربما أمرٌ ما قد

حصل في البلد جعلهم يتراجعون عن إطلاق سراحنا، بل ربما غيروا رأيهم وسوف يعيدوننا إلى سجن تدمر، ويا للكارثة!

الحرية

بفضل الله انزاحت تلك الغمامة وعاد النهر إلى مجراه، وتتابعت الإفراجات إلى أن جاء دوري في كانون أول ١٩٩٥، قبل إتمام خمسة عشر عاما على سجني بشهر واحد.

لم أصدق ذلك اليوم.. يوم الحرية... ما أغلاها من كلمة وماأحلاها.

كنت أسير في الطريق وأتساءل هل أنا في حلم.. هل أصدق عينيَّ أني أرى الدنيا والناسَ من جديد.. هل أنا طليق حر.. كنتُ أشعر أني خرجتُ من القبر.. وأتأمل في وجوه الناس السائرين في الطرقات، كلٌ يمشي إلى حاجته وأمره.. كنت أتساءل هل يحسُّ بي أحد، هل لفتُّ نظر أحد في الطريق؟ هل يعلم أحد ما عانيتُهُ لمدة خمسة عشر عاما؟.. هل أنا من أصحاب الكهف الذين عادوا إلى الحياة بعد سبات طويل؟ هل أنا غريب بين الناس!.. ولكن لم يأبه أحد لي..

أوهكذا كان الناس يمشون في الطرقات، خلال خمسة عشر عاما حين كنا نواجه فيها الأهوال والموت بأشرس أشكاله.. وإخواننا يعلقون على المشانق... لم يشعر أو يحس بنا أحد.. نعم.. الناس منشغلون بتفاهات الدنيا ونحن كنا نموت في صمت!

أوهكذا مضى علينا خمسةُ عشرَ عاما وكأن شيئا لم يكن!

نعم خرجتُ أخيراً إلى الدنيا بعد أن يئستُ وظننت أن نهايتي ستكون هناك

بين جدران السجن، وكنت أنتظر قبري في صحراء تدمر بجانب الشهداء.. إذ أنني شاهدت الموتَ بعينيَّ العديد والعديد من المرات، حتى لم يبقَ بيني وبين حبل المشنقة إلا ذراع، ولكن القدر لم يأذن، وكان في الأجَلِ بقية..

كان الأمر لي أشبهَ بالمعجزة.. فهي بالفعل حياةٌ جديدة، وهاقد خرجت لأعيش عمرا جديدا، وكان هذا من فضل الله أن أعطاني سنواتٍ ما كنت أحسب أن أحياها.. وأعادني إلى الحياة كما أعاد يونس إلى الدنيا بعد أن كان في بطن الحوت (ولكن حوتنا كان أشد ضراوة).. نعم.. أعادني لألتقيَ والديَّ، وأكملَ دراستي، وأتزوج، ويرزقَني الله البنين والبنات.. وأمضي في طريقي أحمل جرحا قديما لا يلتئم، وأحمل ذكرى لا تنسى، عن نجم شاركني طفولتي وشبابي وأحلامي ومحنتي، وكان فارسا بطلا من أبطال الإسلام، اقتفى آثار خطى الشهداءِ ابتداءً من سيد الشهداء حمزة ومرورا بحمزة الخطيب وغياث مطر وطارق الأسود والكثيرين ممن سطروا ولايزالون يسطرون أعظم ملاحم البطولة والفداء، ورفعوا راية الإسلام عزيزة على مرّ الدهور، وستبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وإن هذا الدين محفوظ منصور بوعد الله، لم يفلح أعداءُ الله على مدى أربعة عشر قرنا، بحروبهم الشرسة الحاقدة من النيل منه.. وستبقى عربة الإيمان ماضية إلى يوم القيامة، سواءاً كنا فيها أو لم نكن، فطوبى لمن ساهم في دفعها ومضائها وشدَّ في مسارها، والخيبة والخسارة لمن توانى وتخاذل، والويل والثبور لمن حاول أن يتصدى لها.. فإن كنا مع الذين اعتصموا في عربة الإيمان فهو فوز لنا وأيما فوز.

«يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نورِه ولو كره الكافرون».

يوم الحرية في مذكرات أبي رحمه الله:

يوم الأربعاء ١٣ كانون أول عام ١٩٩٥ كان يوم الفرحة الكبرى يوم أطلق سراح ابننا الحبيب أسامة، هذا اليوم كان حلما وبفضل الله صار حقيقة.

أول ما توجه إلى بيت خالته لأنه لم يكن يعرف مكان إقامتنا الحالي، وبعد أن أصلح قليلا من حالِهِ اصطحبته خالته وزوجها وأتوا به إلى البيت.. كان لقاءً فوق الوصف... لقاءً بعد خمسة عشر عاما من الانتظار.. كان يوم فرحة، ولكنّ الفرحةَ جريحةٌ لأننا لم نر حسام.

كنا لانزال نعيش بالأمل، كان لدي إحساس داخلي بأن أمرا سيئا وقع للحبيب حسام - النمر كما سمَّوه — واحرَّ قلباه.. كان الكثير من الأصدقاء ممن حولنا يعرفون الحقيقة، ومن حسن الحظ أنهم كانوا يكتمون.

لم أكن أجرؤ على سؤال أسامة عن أخيه خوفا من الجواب الذي لم أكن أقوى على سماعه، إلى أن جاء ذلك اليومُ بعد شهور من تحرر أسامة فسألته: هل من أمل في أن أرى أخاك حسام؟ فكر مليا وقال: لا بابا.. وغرقتُ وأسامة في شلال من الدموع.

تعليق مني (أسامة): مازلت أذكر ذلك الموقف وكان من أقساها على قلبي.. كنت أتهيأ لهذا اليوم منذ اثني عشر عاما، بعد استشهاد حسام عام ١٩٨٣، وكنت أعلم أني سوف أُسألُ هذا السؤال الصعب يوما ما ولا أدري كيف سأجيب عليه.

بعد خروجي من السجن، ولأشهرٍ عدةٍ لم نذكر اسم حسام رحمه الله، لاأنا ولا والديَّ، وكنا نتجنب هذا الحديث، خوفاً منا كلٌّ على شعور الآخر..

إلى يوم جاءني فيه أبي، وكان التوتر بادياً على وجهه، وغريبا في مشيته وحركته، وكأنه قد استجمع قواه لهذا السؤال، ولكنه صاغه بطريقة أخرى، فقال بصيغةٍ شديدةِ الاختصار وكأنه يتهيأ لوقع الخبر الذي يعلمه، ولكنه يريد أن يتأكد من الحقيقة:

هل أقرأ القرآن لأخيك حسام؟

تفاجأتُ بالسؤال.. وأحسستُ بارتعاش.. شيءٌ ما هزني بعنف من أعماقي.. لم أستطع الإجابة فورا.. حلَّقتْ أفكاري فوراً في الماضي البعيد وفي السنوات المخيفة التي عشتها، كوابيسُ مرعبة.. تعذيب.. جوع.. مرض.. إرهاب.. إعدام.. سؤالٌ أعادني خمسة عشر عاما إلى الوراء.. إلى السجن بما فيه من أهوال تفوق الخيال... تذكرت حسام ومعاناتَه وابتلاءَه الرهيب وصبره.. تذكرت ساعة الفراق وخروجه إلى ساحة الإعدام.. ثم تصورته وكأني به أراه يطوف مع الشهداء في جنات النعيم الواسعة.. كل ذلك دار في ثوان..

كان قاسيا عليَّ أن أقول الحقيقة المرّة إلى أبي الحبيب، ولكنه أمر لابد منه.. وقضاء الله قد وقع، وكان يؤلمني أن أرى أمي تعيش مع الأوهام والانتظار الزائف، والناس يؤملونها بالأمل الكاذب، ولكني فضّلت أن تبقى على ذلك لأني أعرف يقينا أنها لن تحتمل الجواب.. فلتعشْ اليوم بالأمل الكاذب.. ولكنها لاشك سوف تكتشف الحقيقة بقلبها يوما ما..

بعد إطراقة حزينة وتفكير قصير قلت له والغصة تخنق كلماتي، وقلبي ينزف ألما: نعم يا أبي اقرأ له القرآن..

هزّ برأسه وكأنه يعلم الجواب سلفا، وانصرف فورا بدون أي تعليق أو مزيد من الأسئلة.. ولم نكن نستطيع التطرق لذكر أخي حسام الدين بعد ذلك اليوم.

وتشاء الأقدار أن تدور عجلة الزمان، وينتفض شعبنا العظيم في وجه الطغاة، ويُطلق ثورةً لم يشهدِ التاريخ لها مثيلا في عِظَم التضحيات والصبر والثبات.. ونعود نعيش فصولَ الرواية من جديد، فصولَ القتل والترويع والاعتقالات، ونشهدُ حربا نصيريةً مجوسية قذرة، مجردةً من أدنى معايير الإنسانية، جاوزت بكثير همجية المغول ومجازر هتلر وجنون نيرون.

هؤلاء أبطال سوريا باعوا أرواحهم رخيصة لله، حتى يعيدوا الحرية لوطنهم الذي سُرقت منه كرامته وهويته وإرادته على مدى خمسين عاما، تلك الحرية التي تغنى بها الناس منذ آلاف السنين، ومات من أجلها الملايين.

أيا دارَ أحبابي ومهدَ ولادتي ... ومهبطَ أحلامي، لقد عاد أسراها

أتيتُ إليكِ اليوم أعصِفُ قوة ... أُجدِّدُ أسيافي، وأمضي بأمضاها

لئنْ رأيتِ الشيبَ طاف بهامتي ... فقلبي لأُسْدِ الموت ماهاب لُقياها

سأمضي بعون الله بحرَ عواصفٍ ... تَهيجُ بموج الثأر.. تأتي بأعتاها

تمزقُ ذئب الكفر.. تطمِسُ وجهَه ... ويُذبح بالكف التي كان أدماها

فإن كان نصرُ الله فهو رجاؤنا ... وهذي وجوهُ النور بانت ثناياها

وإن كانت الأخرى فتلك شهادة ... وروحاً لدين الله بالخلد بعناها

فهرس المحتويات

أسامة هشام ٣

يوم الاعتقال ٧

بداية الشرر ١٢

حوادث الدستور: ١٣

أبي والاستعمار الفرنسي ١٦

أنقل كفاح أبي ضد الفرنسيين كما كتبها في مذكراته: ١٧

فوزي القاوقجي برواية أبي –رحمه الله–: ١٨

أبي وحكم البعث ١٩

مروان حديد ٢٣

حُمّى الاغتيالات والاعتقالات ٢٦

البرتقالة ٢٩

التحقيق ٣٢

تدمر ٣٧

المهجع: ٣٨

عبد الحليم: ٣٩

الشرطة: ٤٠
التنفس: ٤١
البلدية: ٤١
توصية خاصة بالمثقفين: ٤٣
رئيس المهجع: ٤٥
الحارس الليلي: ٤٧
عبد الوهاب: ٥١
أبو دان: ٥٢
حسام ٥٣
مجزرة حماة ٦٠
المحكمة ٦٣
تدمر الجامعة ٦٧
هاشم الرفاعي ٦٩
المسؤول الصحي ٧١
حمدي لطفي: ٧٢
الأمراض المعدية: ٧٤
الحاجة أم الاختراع: ٧٦
فيصل غانم ٧٦

الصاعقة ٧٨
قوافل الشهداء ٨٣
المواقف كثيرة وكثيرة.. ..... ٨٩
تجربتي مع الشعر ٩١
الزيارة ٩٣
مؤمن ٩٧
تدمر والعصر الذهبي ٩٩
اجتماع المسؤولين الصحيين ١٠١
تجديد البيعة ١٠٤
سنوات طوالٌ ثقال ١٠٥
"وأصبح فؤاد أم موسى خاويا" ١٠٩
الفيل: ١١١
مع الكتائب ١١٢
جـــوني ١١٦
الانتقام الرباني ١٩٩٤ ..... ١١٩
الشعر والرسائل ١٢٣
الزيارة الثانية عام ١٩٩٤ ..... ١٢٣
زيارة الحبيب أسامة في تدمر عام ١٩٩٤ ..... ١٢٥

تعليق من خالي عاصم على تلك الزيارة: - ابتهال ١٢٦
السنة الأخيرة في السجن ١٢٨
لجنة أمنية في تدمر ١٣٠
الحرية ١٣٤
يوم الحرية في مذكرات أبي رحمه الله: ١٣٦